كتاب اليوم
عيون ممطرة
عبد الوهاب مطاوع
عدد خاص
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: عيون ممطرة.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة:

عُيون مُمطِرة

عبدالوهاب مطاوع

هذا الكتاب

أعجبني هذا التعبير «عيون ممطرة» فاخترته عنوانا لكتابي هذا الذي يضم مجموعة جديدة من قصص المعذبين والمهمومين بأمورهم الحقيقية.

ولست أذكر أين قرأت هذا التعبير.. أو أين سمعته، ولا هل قرأته أو سمعته من قبل بالفعل، أم أنه قد طاف بخاطري فجأة وأنا أعد هذه المجموعة من القصص الإنسانية الواقعية للنشر فرأيته معبرا عنها وملائمًا لها..

إن مطر العيون هو دموعها.. وهو «مطر» رحيم يرطب الأحزان الجافة ويخفف من قسوة الآلام، كما ترطب أمطار السماء حرارة الجو وتخفف من هجير الحياة، والقادرون على استمطار عيونهم عند اشتداد الحزن والضيق والألم أحسن حالا ممن تستعصي عليهم عيونهم حين يحتاجون إلى إطلاق البخار المكتوم في صدورهم.

ولقد تنبه الشاعر العربي القديم ابن الرومي إلى هذه الحقيقة النفسية الحديثة نسبيا، فقال:

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا

الله أدرى بلوعة الحزن

فعسى أن أكون قد استطعت تجفيف بعض دمع المحزونين الذين أفضوا إليّ بهمومهم وطلبوا مشورتي في أمرهم.. وعساي - أن تعذر عليّ تجفيف الدمع في بعض الأحيان - أن أكون قد نجحت على الأقل في تأكيد احترامي لأحزان من استودعوني أسرارهم الشخصية.. ودموعهم..

والله من وراء القصد دوما وأبدا..

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحطيم الأغلال

ترددت أكثر من مرة في الكتابة إليك، لأنني لست شابا صغير السن يبحث عن حل لمشكلته، وإنما أنا للأسف رجل في قمة النضج وفي الثالثة والخمسين من عمري.. وقد تزوجت منذ 25 عاما، وأنجبت من زوجتي 5 أبناء أكبرهم في الثالثة والعشرين وأصغرهم عمره عامان، وكنت أتمنى ألا أكون قد أنجبت من زوجتي هذه لأن أبنائي هم السبب الرئيسي فيما عانيته وتحملته منها.

ولكي أرسم لك صورة صادقة عن زوجتي، فإني أقول لك إن طبعها يختلف عن طباع كل الزوجات، وإنها لا تأخذ أي كلمة تقال لها بحسن نية أبدا، وإنما بحساسية شديدة دائما، وتتفنن في اختلاق المشكلات بغير أسباب حقيقية، ومن الأيام الأولى لزواجنا، وقبل أن ينتهي شهر العسل كنا نتناول طعام الإفطار في أمان، فنهضت زوجتي عن المائدة فجأة، وبعد قليل شممت رائحة كيروسين قادمة من ناحية الحمام، فاتجهت إليه لاستطلاع مصدرها، فإذا بي أرى زوجتي هذه وقد سكبت الكيروسين على جسمها وملابسها وتبحث عن علبة الكبريت! وكانت أزمة كبرى تدخل فيها الأهل والوسطاء، ومنذ ذلك اليوم خيم النكد على حياتنا حتى أصبحت أغادر البيت والنكد يصاحبني، وأرجع إليه لأجده في انتظاري.

وجاء الأبناء واحدا بعد الآخر.. واستقرت طبيعة الحياة بيننا على ما سارت عليه من البداية للأسف. ونجحت زوجتي في إعدام شخصيتي وإهدار كرامتي كأب أمام أبنائه.. فذات يوم دفعتني بقوة، فسقطت على الأرض، وتركتني أتوجع من شدة الألم أمام الأولاد.

كما طلبت مني «نزع يدي» من عملية تربية الأبناء منذ جاء أول مولود، وفرضت هي سيطرتها على كل أفراد الأسرة، وأصبحت صاحبة الأمر والنهي في البيت والأسرة وشؤون الأبناء وكل شيء.

إلى جانب مطالبها التي لا تنتهي ولا تتناسب مع دخلي الشهري، فإذا رفضت لها طلبا علا صوتها ليسمعه الجيران والمارة.

وإذا وجدت هي أحد إخوتها قد اشترى لنفسه أو لنفسها شيئا فلابد لها من أن تشتريه وترهقني بثمنه ولو لم تكن في حاجة إليه، لأنها مصابة بداء الغيرة الشديدة من الآخرين، كما أنها مغرمة بأن تعيرني دائما بالآخرين، وتحدثني عما اشترى فلان، وعما جاء به فلان، ومنهم التاجر الذي لا يقاس دخلي بدخله، ورئيس مجلس الإدارة الذي يتقاضى أضعاف مرتبي كموظف عادي.

ولا أريد أن أطيل عليك بالتفاصيل المخجلة عن نمط حياتي معها وعلاقتها بي، ولكن يكفي أن أقول لك فقط إنها حين تريد إيقاظي من النوم، فإنها لا تهزني برفق في كتفي كما تفعل الزوجة التي تعرف ربها.. ولا تقول لي : اصح يا حبيبي كما تفعل الزوجة المحبة.. وإنما تركلني بقدمها وتصيح في : قوم.. إياك ما توعى تقوم!

وإذا جاءنا ضيوف، فإنها لا تدع لي الفرصة للجلوس معهم وإذا فعلت، ولو بطريق الخطأ، فإن الشجار والنكد سوف ينتظرانني بعد انصرافهم، كما أنها لا تسمح لي بالذهاب إلى عملي إلا بعد استئذانها، وإذا تصادف أن تأخرت في العودة لأي سبب طارىء فتحت لي محضرا، وهات يا سين وجيم،، ويزداد النكد أضعافا مضاعفة، فضلا عن أنها كثيرا ما تستفزني بأقوال من نوع : لو كنت رجلا اخرج ولا تعد مرة أخرى، أو لو كنت رجلا تزوج! وهل تظن نفسك رجلا؟ إلخ.. حتى أنني أقوم بغسل الأطباق والحلل وتنظيف الشقة، وغير ذلك كثير وكثير وقد اختتمته زوجتي أخيرا بهجرها لفراش الزوجية، مع أني قد تحملت 25 عاما لم أشعر خلالها بالراحة النفسية وراحة البال وصبرت على النكد وإهدار كرامتي وشخصيتي أمام الأبناء والأقارب والغرباء.

ولقد كان من نتائج إبعاد زوجتى لى عن شؤون أبنائي أن سار الابن الأكبر في طريق خاله.. وهو طريق معوج، ووقع في مشكلة قضائية كان السبب الرئيسي فيها شقيق زوجتي ولا غرابة في ذلك، فقد كنت أرى الخطأ بعيني وأسمع عنه من الآخرين ولا أستطيع أن أفعل شيئا، كما بدأ الابنان الثاني والثالث يسيران في الطريق نفسه وأنا عاجز عن فعل شيء لأن أمهم قد منعتني من تربية أبنائي وهم صغار.

إنني أعرف أنك «ربما» تلومني أنا في البداية لأنني قد أعطيتها الفرصة لكل ما فعلته طوال 25 عاما من الزواج.. لكن الأوان قد حان الآن لأن أتحرر مما أنا فيه وأشعر بنفسي كرجل مثل غيره من الرجال له شخصيته القوية وكرامته، وحقوقه المشروعة كزوج، فلقد ضاق صدري وفرغ صبري على هذه الزوجة التي كثيرا ما فكرت في التخلص منها لولا خوفي على أطفال الصغار منها، وأقسم لك في النهاية أن كل كلمة ذكرتها لك عنها صحيحة ولا مبالغة فيها.. فماذا أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليتك لم تشم رائحة الكيروسين قبل أن تعثر زوجتك على علبة الكبريت في ذلك اليوم المشؤوم من شهر «عسلك» معها!

وأغلب الظن أنه لو كان قد حدث ذلك لما انتحرت أيضا، ولا أعفت الحياة من وجودها فيها، وإنما كانت قد فقدت فقط فاعلية إحدى وسائلها المبكرة للسيطرة عليك وقهر إرادتك وإرغامك على قبول ما لا تحب لنفسك على نحو ما فعلت معك على مدى 25 عاما!

ولا عجب في ذلك لأن من تقدم على الانتحار حرقا لا تبدأ بسكب الكيروسين على جسمها ثم تبدأ بعد ذلك في البحث عن الكبريت، لكي تصل رائحة الكيروسين الفواحة إلى من يهمه الأمر، فيهب لإنقاذها، وتحقق هي الهدف من المحاولة ويتكرس الخوف في نفسه من مخالفة رغباتها فيما بعد لكيلا تكرر واقعة الانتحار

وتكون كارثة جديدة.. ناهيك عن استخدامها فيما بعد، للأساليب الأخرى في الترهيب والترغيب لقهر إرادة الزوج وإذلاله!

فما هذا الذي ترويه عن نفسك وزوجتك وأبنائك يا رجل، وبأي أعذار سوغت لنفسك الصبر على كل هذا الهوان.. حتى اختتمته زوجتك بهجرها لفراش الزوجية.. فإذا بالصبر قد نفد، والصدر قد ضاق بما فيه، وشعرت بأنه قد آن الأوان لأن تحطم قيودك وتتحرر مما أنت فيه!

أغلب ظني أن هجرها المتأخر لفراش الزوجية كان الشرارة التي أشعلت النار فيما بقي من صبرك عليها وقضى عليه، أما حكاية الحرص على مصلحة الأبناء كمبرر للصبر وقبول الإهانة وإهدار الكرامة على هذا النحو المؤسف، فإنها لا تبدو لي في قصتك مبررة مقنعا.. ذلك أن الكتاب يقرأ من عنوانه ولقد أتيحت لك الفرص العديدة لقراءته في شهر العسل والشهور الأولى من الزواج، وخلال ما يقرب من العامين اللذين سبقا إنجابك لأول أطفالك، ولم تنتهز الفرصة وتنج بكرامتك وحياتك من هذا الشقاء.. كما كان بمقدورك أيضاً وقد خبرت شخصية زوجتك، أن تقلل من روابطك بها حتى بعد إنجاب الطفل الأول أو الثاني.. أما أن تواصل الإنجاب منها حتى ليقل عمر أصغر الأبناء عن عامين، فلا معنى له إلا أنك لم تصبر على ما لقيته منها من أجل هؤلاء الأبناء.. وإنما لأسباب أخرى.

وعلى أية حال، فإني لست في حاجة إلى تأكيد موقفي وإيماني الثابت بأن من واجب الآباء والأمهات أن يصبروا على شركاء الحياة حرصا على سعادة الأبناء واستقرارهم، لكن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - يقول لنا على الناحية الأخرى إنه «ما من عام إلا وخصص، حتى هذه القاعدة نفسها!» وهو المعنى نفسه الذي ردده المحدثون فيما بعد، حين قالوا إن لكل قاعدة استثناء.. أنت يا سيدي هذا الاستثناء من القاعدة التي أؤمن بها، ويدعوني ذلك لأن أقول لك : إن الزوجة التي تمتهن كرامة زوجها وتتلذذ بفرض سيطرتها عليه وإذلاله وإهانته أمام أبنائه والأقارب والغرباء، ولا توقظه من نومه إلا ركلاً بالأقدام، وتحرم عليه مجالسة ضيوفها كأنه عار شخصي لا يصح إطلاعهم عليه، وتكف يده عن شؤون أبنائه لكي تنفرد دونه بتنشئتهم على قيمها الفاسدة، حتى ليقع أحدهم في مشكلة قضائية بسبب سيره مع خاله في الطريق المعوج.. مثل هذه الزوجة لا رادع لها ولا علاج سوى الانفصال عنها ولو كان زوجها قد أنجب منها عشرين طفلا، ولا عذر لمن يتحمل الهوان معها بدعوى مصلحة الأبناء، لأن مصلحة الأبناء مسؤولية مشتركة بين الأبوين، وليست مسؤولية أحدهما دون الآخر، ولا يجوز لأحدهما أن يتمادى في الضغط على الآخر على هذا النحو المذل اعتمادا على استشعاره لواجبه الأخلاقي تجاه أبنائه وإلا تحول الأبناء إلى سيف بتار في يد أقل الطرفين حرصا على مصلحتهم ورعاية لحقهم عليه.

كما أنه ليس من مصلحة مثل هؤلاء الأبناء في النهاية أن ينشأوا في كنف أب مقهور الإرادة ومهدر الكرامة مع أمهم، فتهتز قيمهم الأخلاقية ومثلهم العليا، ويخرجوا إلى الحياة بمفاهيم فاسدة، وحال ابنك الأكبر وأخويه خير دليل على ذلك.. فبأي مبرر إذن يمكن الاستمرار في تجرع مثل هذا الهوان؟

لقد فهمت من رسالتك أن زوجتك تعيش في بيت يقيم به أهلها.. وعلى هذا الأساس، فلن تكون مأساة تربوية عظمى في أن تتحرر أنت بالفعل من أغلالك معها وتسترد إحساسك بنفسك كرجل.

وإذا كان الأوان قد فات لأن تفعل مع زوجتك ما قام به الشاب قوي الشكيمة بتروشيو في مسرحية «ترويض الشرسة» لشكسبير حين استفزته شراسة الابنة المدللة كاترين، فتزوجها عامدا لكي يروضها ويهذب جموحها ويرغمها على احترام الزوج، ونجح في ذلك بالحيلة والذكاء وقوة الشخصية، حتى أصبح في النهاية يشير إلى الرجل العجوز ويقول له محيية : يوم سعيد أيتها الآنسة الجميلة الرقيقة! ويطلب من زوجته أن تحييها، فتسترجع ذكريات زمجرته في وجهها عند مخالفتها لإرادته وتسرع على الفور بتحية الآنسة وإطراء جمالها!

إذا كان الأوان قد فات على ذلك، ولا هو المطلوب بالفعل في العلاقة المثالية بين الزوج والزوجة، فإن الأوان لا يفوت أبدأ لكي يتوقف الإنسان في أي مرحلة من العمر ويقرر ألا يقبل على كرامته ما لا يرضاه الحر لنفسه مهما تكن الضغوط والإغراءات. فاستجمع إرادتك وحاول محاولتك الأخيرة اليائسة لفرض شخصيتك على زوجتك كزوج كامل الحقوق والأهلية لها، وكأب للأبناء ورب للأسرة وربان لسفينتها فإن لم تستجب لك، وما أظنها ستفعل، فأقبل تحديها لرجولتك.. وانفصل عنها.. وتحمل مسؤوليتك الأبوية والتربوية عن أبنائك الصغار وهم في حضانة أمهم إلى أن يبلغوا سن انتهاء حضانتها لهم، ثم استقل أنت بتربيتهم وتنشئتهم وتطهير عقولهم وشخصياتهم من المؤثرات الفاسدة التي تسللت إليهم من قبل، ومن يدري فلقد تكتشف في نفسك إذا اقدمت على ذلك بالفعل من القوة ما لم تكن تظنه فيها، ولقد تكتشف زوجتك في نفسها حينذاك من الضعف والحاجة الفعلية إليك ما لم تكن هي تبديه أو تعترف به مكرة ودهاء

وإمعانا في قهرك والسيطرة عليك. وشكرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كشف الحساب

أنا سيدة متزوجة ولدي ثلاثة أطفال، وقد قرأت رسالة «مواقف الحياة» للأب المعذب الذي يشكو من جحود ابنته الشابة له واجترائها عليه وانحيازها لأمها غير الأمينة على زوجها ولا على أبنائها.. ويصف مدى تألمه لوقاحة ابنته ابنة السبعة عشر عاما عليه وإنكارها له وطلبها منه أن يغرب عن وجهها ويدعها لنفسها هي وأمها وأريد أن أقص عليه وعلى ابنته قصة أسرتي لعلها تخفف عنه بعض أحزانه.. وتعيد هذه الابنة الضالة إلى رشدها قبل أن تدفع ثمن جحودها لأبيها غاليا من حياتها وسعادتها، فلقد نشأت بين أب طيب مسالم.. وأم شرسة معتزة ببياض بشرتها وجمالها وسطوة أسرتها، في بيت لا يعرف الاستقرار إلا قليلا، وتفتحت عيوننا وآذاننا على أمنا القوية الشرسة وهي تشتبك مع أبي في كل مناسبة وتعيره بسمرة بشرته وهو أن أسرته بالقياس لسطوة أسرتها المعروفة بالشراسة وتنعي حظها الذي «دفن» جمالها مع هذا الرجل الأسمر «الجلف» كما كانت تدعوه أمامنا، وهو يتحمل ويصبر ويغضب في بعض الأحيان ويهجرها لفترة من الوقت ثم يتدخل الوسطاء بينهما فيعود. ويقول لنا بعد عودته إنه لم يرجع إلا من أجلنا لأنه يخشى علينا من الضياع إذا تركنا لرعاية أمنا وحدها.. إلى أن بدأت أمنا تشركنا في مصادماتها مع أبينا.. وتأمرنا في غمرة الشجار بأن نسبه بأقذع السباب وإلا فالويل لنا إن لم نفعل ذلك، فكنا نمتثل لأوامرها خوفا من بطشها بنا وتنطق ألسنتنا بأبشع الألفاظ والكلمات ضد أبينا ولا نتوقف ونحن صغار للأسف أمام نظرة الحسرة والألم في وجهه ونحن نفعل ذلك، ولا نبادره للأسف بالاعتذار بعد ذلك، وإنما نشارك أمنا في خصامه لفترات طويلة ولا نكاد نجيب له طلبا إلا إذا أمرتنا أمنا بذلك وهي تشجعنا على ذلك.. وتشجع شقيقنا الوحيد الذي كان يسرق من نقود أبي من حين لآخر ويعطيها ما يسرقه على أن استمر في ذلك وعلى عصيان أبيه، وتحميه من الحساب.. وتحمينا كذلك من أي عقاب مع أن أبي لم يكن يعاقب أحدا منا.. وإنما كان يكتفي بلومه وبتذكيره بعقاب ربنا لمن يجحد أباه أو يسيء الأدب معه.. ويقول لنا إنه لم يقبل باستمرار الحياة مع أمنا بعد ما لقيه ويلقاه منها إلا لكيلا ينفر منا الخطاب في المستقبل حين يجدون أمنا في بيت رجل آخر غير أبيهم وأباهم متزوجا من امرأة غير أمهم.. وبالرغم من ذلك، فلم توقف إساءة شقيقاتي له.. وبلغ أبي قمة الشعور بالألم حين قرأ ذات يوم اسم شقيقتي على كراسة لها، فإذا بها تنسب نفسها بتحريض من أمنا لا إليه كما هو الطبيعي وإنما إلى خالها ذي المنصب المرموق.. فتوقف أمام الإسم المنتحل متألما وسألها متحسرا : إلى هذا الحد تنكرين أباك وتتمسحين باسم خالك؟

ثم غادرها دامعا ومتألم ومضت الحياة بنا بالرغم من كل شيء وارتبطت إحدى شقيقاتي بزميل لها بالجامعة لم يرض أبى عنه في حين خالفته أمي كالعادة وشجعتها على الارتباط به وطالبتها بألا تأبه لموقف أبينا لأنها سوف تزوجها منه رغما عنه وبالفعل تحدت شقيقتي أباها وأعلنت له أنها سوف تتزوجه رغما عنه بمساعدة أهل أمي.

وتمادت أمي في تشجيعها على ذلك وحددت لهذا الشاب موعد لزيارتنا ليطلب يدها من أبي بالرغم من إعلانه رفضه له، وقبل أن يحل هذا الموعد بأيام قليلة أصيب، أبي بالشلل كمدا وحزنا وحسرة على حياته الضائعة بين جفاء زوجته وجحود أبنائه، وتمت الخطبة وهو مريض حسير، وبعد فترة معاناة طويلة مع المرض رحل أبي عن الحياة، ومضينا نحن في طريقنا، فتزوجت البنات واحدة بعد أخرى.. وانفردت أمي بنفسها وجبروتها في بيت أبي وعاما بعد عام راحت تتوالى على الإخوة - الذين جحدوا أباهم وأساءوا إليه في حياته - المتاعب والمعاناة.. فتعثرت حياة أختي الكبرى التي نسبت نفسها ذات يوم إلى بنوة أمها دون أبيها.. وبعد سنوات من استقرار حياتها الزوجية مع رجل محترم إذا به يتهم في جريمة أخلاقية ويتورط في فضيحة مدوية سوف تدفع أبناءه للخجل من الانتساب لأبيهم كما خجلت أمهم ذات يوم من الانتساب إلى أبيها ناهيك عن جحيم المتاعب القضائية وتكاليفها وضيق ذات اليد بعدها.

وتزوجت الأخت الثانية من الشاب الذي تحدث به أبي وأحضرته إلى بيته رغما عنه وهو مريض ومحسور، وسافرت إلى إحدى الدول العربية، فذاقت معه كل أنواع الشقاء ولم تهنأ بحياتها الزوجية معه يوما واحدا ومات فجأة في سن مبكرة وتركها بلا عائل ولا معاش، فلم تجد في النهاية سوى معاش أبيها وتقدمت بطلب لإعادة صرفه لها كأرملة لا مورد لها.. وهي الآن تعتمد في معيشتها على معاش الأب الذي تحدته وقهرته وعجلت بمجيء المرض إليه.

أما الابن الوحيد الذي كان يسرق من أبيه ليعطى أمه ويتجرأ عليه في حمايتها، فلقد حرمه الله سبحانه وتعالى من الاستقرار في أي عمل ومن النجاح في أي مشروع يقيمه، وما من عمل يبدأه أو مشروع صغير ينفذه إلا ويسرقه فيه من يعمل معهويخسر فيه الجلد والسقط ويرجع لنقطة البداية من جديد، ناهيك عن تعاسته الزوجية التي صارت مضرب الأمثال مع زوجة من أسرة أمي.. ولولا خوفه على أطفاله منها لطلقها واستراح منذ زمن طويل.

ويأتي الدور للحديث عنى وقد شاركت للأسف في التستر على أمي في إيذائها لأبي وساعدتها أحيانا في ذلك فأقول لك إنني سعيدة في حياتي الزوجية الآن وأطفالي بخير كلهم والحمد لله.. لكني خائفة حتى المرض مما سوف يحمله لي المستقبل وأشعر بالذنب لما فعلت مع أبي وبالندم الشديد عليه وأترقب عقاب السماء لي عنه وأنا واجفة القلب.. وتمضي على أحيانا بضع ليال لا أذوق فيها طعم الراحة.

وأرى في نومي كثيرا أبي الراحل يرحمه الله جالسا تحت شجرة جرداء لا أوراق تحميه من لهيب الشمس.. مرتديا جلبابا متسخا للغاية وكلما هممت بالاقتراب منه نهض من مجلسه وأدار ظهره لي وابتعد عني وهو يعرج في مشيته بطريقة غريبة وانهض من نومي منقبضة الصدر وافسر رموز هذا الحلم بأن الشجرة الجرداء التي كان يحتمي بظلها فلا تظله بأي ظل لأنها بلا أوراق- هي نحن أبناء هذا الأب الطيب الصابر الذي لم نظله في حياتنا بحبنا واحترامنا له وتعاطفنا معه.. وأن هذا الجلباب المتسخ الذي يرتديه رغما عنه هو أمنا المفترية عليه والجاحدة

لفضله.. ولا عجب في ذلك، فلقد طردتنا في النهاية من بيت أبينا وحرمتنا من آخر ميراثه الذي استولى عليه أهلها ذوو السطوة والشراسة.

وكلما نظرت إلى زوجي الذي يحسن معاملتي وأحسن معاملته وإلى أطفالي الصغار الذين يضيئون حياتي بالحب والبهجة والأمل.. استسلم للخواطر السوداء وأتساءل : من أي اتجاه يا رب سوف يجيء قصاصك العادل مني لجحودي لأبي ومشاركتي لأمي في إيذائه؟ وينهمر دموعي طويلا وابتهل إلى الله العلي القدير أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، وأن يترفق بي في قصاصه، فلا يصيب أحدا من أفراد أسرتي الصغيرة سواي وأرجو أن تشاركني أنت وقراء بريد الجمعة هذا الابتهال وأن تدعو ابنة كاتبة رسالة «مواقف الحياة الجاحدة» لأبيها إلى أن تقرأ قصتي جيدا وتفيق من غيها وحمقها وترجع إلى أبيها وتطلب صفحه وعفوه قبل أن يحل بها قصاص السماء العادل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا عجب يا سيدتي فيما ترويين عن إخوتك، فلقد علمنا الهادي البشير صلوات الله وسلامه عليه أن كل الذنوب قد يؤخر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه ولو كانت إساءة إخوتك لأبيهم قد اقتصرت على فترة الطفولة الجاهلة أو حتى بواكير الصبا الأرعن لكان الله سبحانه وتعالى قد أعفاهم من المسؤولية باعتبارهم ضحايا الأم لم ترع حدود ربها في علاقتها بزوجها وأبنائها، لكنه من الواضح أن هذه «الجهالة» قد تخطت مرحلة الطفولة واستمرت في مرحلة التمييز بين الخطأ والصواب والحلال والحرام، أي مرحلة التكاليف الدينية التي تطالب الأبناء برعاية حرمات الأب وطاعته وحسن مصاحبته فلا عجب إذن في أن يعجل الله سبحانه وتعالى العقاب في الدنيا لمن عقوا أباهم وأورثوه الحسرة والمرض.. ولم يقدروا له تضحيته بسعادته الشخصية من أجلهم وخاصة أنه لا يبدو من سياق قصتك أن هؤلاء الأبناء قد استشعروا الندم على ما بدر منهم تجاه أبيهم.. أو استغفروا ربهم آناء الليل وأطراف النهار فيما جنوا على هذا الأب الصابر، ولا قال قائلهم حين بلغ الرشد وأدرك فداحة جرمه «رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَ□رْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ» كما سوف يقول يوم القيامة من أنكروا البعث في ضلالتهم في الدنيا.

غير أن ما يستحق أن يتوقف المرء أمامه طويلا متأملاً ومستعبراً هو أن يجيء برهان ربك لكل ابن أو ابنة مذكرة إياها أو إياه بنوع جنايته على أبيه لكي تنتفي لديه كل شبهة في أن هذا العقاب لأي سبب آخر من أسباب الدنيا سوى عقوقه لأبيه. فيكون عقاب السماء لمن طلبت لنفسها «الرفعة» بالانتساب لغير أبيها وأشعرته غفر الله لها بأنها «تخجل» من الانتساب إليه هو أن تشقى بحياتها العائلية ويتورط زوجها في فضيحة أخلاقية قد تدفع أبناءه ذات يوم إلى الخجل من الانتساب إليه بين أقرانهم. «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» صدق الله العظيم.

ويكون عقاب السماء لشقيقتك التي تحدت أباها وقهرت إرادته وأورثته المرض والشلل ومضت في مشروعها للارتباط بزميلها بغير أن تأبه لمعارضته أو تبذل أي جهد لإقناعه به وطلب رضائه عنه منذرة إياه بأنها سوف تفعل ما تريد معتمدة في ذلك على أهل أمها وأنه «لا حاجة لها إليه» ولا إلى قبوله أو رضاه، يكون عقابها هو أن تشقى في حياتها الزوجية وترجع بعد رحيل الأب محسورة ومكلومة إلى الاعتماد في معيشتها وتنشئة أبنائها على معاشها عن نفس هذا الأب الذي أشعرته من قبل بأنه لا ضرورة له في حياتها ولا حاجة لها به، فكأنما قد أراد الله سبحانه وتعالى أن يرد عليها ضلالها ويؤكد لها أنها كانت وما زالت وسوف تظل في حاجة إلى هذا الأب الذي يمد الآن مظلته لرعايتها حتى وهوبين يدي أرحم الراحمين و «قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» صدق الله العظيم.

ويكون عقاب الابن الوحيد الذي أدمن سرقة أبيه لصالح أمه وشاركها الاجتراء عليه والإساءة له الفشل في حياته العملية، فتحالفه الخيبة في كل مشروع يقيمه ويسرقه الآخرون في كل عمل يبدأه.. ولا يعرف السعادة في الحياة الزوجية ولا النجاح في الحياة العملية «وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ» صدق الله العظيم.

فأما هواجسك ومخاوفك من أن يطالك عقاب السماء على مشاركتك لوالدتك في إيذاء أبيك وتسترك عليها في بعض ما ارتكبته في حقه..، خاصة وقد ترفقت بك السماء، فوفقت في حياتك الخاصة حتى الآن، فإن لها ما يبررها فيما رأيت من برهان ربك في إخوتك حتى الآن، غير أنه يخيل إلي أن إسهامك في هذا الأذى كان أقل إلى حد كبير من نصيب إخوتك فيه، وأن معظمه كان إسهاما سلبية بالتستر على ما تفعله أمك في حق أبيك خوفا من بطشها، وليس إسهاماً إيجابياً في إيذائه بالفعل والقول المباشرين، ذلك إذا ضربنا صفحا عن جهالة الطفولة ومسؤولية أمك عنها، كما أن ترقبك للقصاص وتخوفك منه له جانب إيجابي آخر هو استشعارك لاجرم الذي مضى وندمك عليه واستغفارك لربك طلبا للصفح عنه.

ومن أحزان الحياة الحقيقية أن يرحل عنا من لم نستشعر الحزن الصادق عما بدر منا تجاههم إلا بعد أن غابوا عنا وتعذر علينا الاعتذار لهم وطلب صفحهم وعفوهم عنا، فلا يبقى لنا بعد ذلك إلا الرجاء في الله رب العالمين أن يغفر لنا ما مضى من ذنوبنا ويعصمنا فيما بقى لنا من عمرنا ويرزقنا أعمالا زاكية يرضى بها عنا كما جاء في الأثر عن دعاء رجل غريب سمعه الصحابة ذات يوم وهم لا يعرفونه يدعو بهذا الدعاء في مسجد الرسول بالمدينة، فرووا عنه للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فأخبرهم أنه الروح الأمين جبريل عليه السلام.

وما أفدح أخطاء الشباب الذي لا يرى كما قال عنه أعظم شعراء روسيا بوشكين «سوى قوته فتدنيه هذه القوة من الحياة وينغمس فيها ويذهله سحرها وأضواؤها فتختم في بعض الأحيان على بصيرته وتختلط عليه الأمور ويعجز عن التفرقة بين النور والظلام والخير والشر والسعادة والشقاء».

غير أن هدي السماء لم يشأ لنا أن نحترق بلسع الندم والألم إلى ما لا نهاية، فأرشدنا إلى أنه لا يلام المرء على أمر قد تاب عنه فاعله وصحت توبته عنه وصدق ندمه عليه وأرشدنا كذلك إلى أن إكرام أحد الأبوين الراحلين والاعتذار له.. إنما يكون بالدعاء الصالح له في كل حين والتصدق على روحه والحج عنه إن لم يكن قد أدى الفريضة وإكرام صاحبه وقضاء دينه.

وبذلك يكون حزن المرء على ما فاته الاعتذار عنه لأبيه أو أمه في حياة كل منهما صادقا وأمينا ومن ذلك النوع الذي يقول عنه الصوفية إنه من مقامات السالكين ويبعث على الانكماش في الأعمال «السيئة» والنهوض إلى الطاعات فليكن اعتذارك لأبيك يا سيدتي بالدعاء الصالح له في كل حين والتصدق عليه والإشادة بفضله وتنشئة أطفالك على القيم الدينية والأخلاقية التي أساءت إليكم والدتكم كثيرا حين أفسدت بعضها عليكم، وبغرس حب الأب واحترامه واحترام ذكرى الجد الطيب الصالح في نفوس هؤلاء الأبناء.

مع رجائي الصادق لك أن يكون سبب نقمتك الآن على ما فعلت والدتك بأبيك وأشركتكم معها فيه هو الندم الصادق عليه والحزن الحقيقي على أبيك الراحل وليست فقط النقمة على ما فعلت بكم والدتكم التي لم يأتها بعد فيما يبدو برهان ربها حين طردتكم من بيت أبيكم وحرمتكم من ميراثكم عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق المظلم!

أنا رجل في الخامسة والأربعين من عمري متزوج ولي طفلان وأعمل مديرا بإحدى الشركات الكبرى في إحدى الدول العربية، وقد بدأت عملي في الغربة منذ 15 عاما وعشت حياة سعيدة وهادئة مع زوجتي وهي سيدة فاضلة ومحافظة وترعى الله في علاقتها بي ولم تشهد حياتي معها أية منغصات جادة، ولم أشك منها شيئا سوى بعض الغيرة التي قد تتخطى أحيانا الحدود المعقولة.. لكنها في النهاية غيرة الحب والرغبة في الحفاظ على كيان البيت والأسرة، ولهذا فلم أتطلع في أي يوم من الأيام لأن أعرف امرأة غيرها لتديني وانشغالي بعملي وأسرتي.

ومنذ ثلاث سنوات انضمت إلى شركتنا موظفة مصرية شابة في السابعة والعشرين من عمرها استطاعت بعد فترة وجيزة من عملها أن تجذب الاهتمام إلى شخصيتها المتميزة، فتوزع الزملاء بالنسبة لها بين معجب بها وساخط عليها، أما بالنسبة لي فلم تكن سوى موظفة من موظفات الشركة أتعامل معها بطريقة عادية وعملية في نفس الوقت، غير أن الأمور مضت فيما بعد إلى اتجاه آخر، فلقد نشأ بيننا بعد عدة شهور ما يشبه الألفة والاهتمام وبدأت أوجه إليها النصائح فيما يتعلق بالعمل وظروف الغربة وخاصة بعد أن نشبت الخلافات بينها وبين بعض زميلاتها في العمل ثم صعدت زميلاتها هذه الخلافات إلى أصحاب الشركة وتقرر إنهاء عملها وعودتها لبلدها. ولم أتدخل أنا في هذا الموضوع لا بالتأييد ولا بالرفض.

وقبل موعد سفرها بأيام، فوجئت بها تطلب الحديث معي على انفراد ولم أجد مانع من ذلك خاصة وهي على وشك المغادرة، وقابلتها بالفعل في مكان عام، فراحت تحدثني عن أنها قد اختارتني للحديث معي عن مشكلتها لمعرفتها بمدى قربي من أصحاب العمل وثقتهم في، عسى أن أستطيع نقل وجهة نظرها إليهم ولكيلا ترجع إلى بلدها دون أن يسمع أحد دفاعها عن نفسها، وكشفت لي عن حقيقة لم أكن أعرفها وهي أنها ليست آنسة كما يتصورها الجميع وإنما هي سيدة مطلقة بعد تجربة زواج مريرة ولها طفلة أخذها والدها منها وهاجر بها للخارج وحرمها منها وتزوج في المهجر من أخرى، فعانت الكثير بعد الطلاق من نظرة المجتمع الشرقي المطلقة ومن المسؤولية المادية إلى أن جاءتها فرصة العمل في الغربة كحل لمشكلتها، لكن عودتها منها بعد عدة شهور فقط سوف تثير حولها الأقاويل وسألتني في النهاية إذا كنت أستطيع أن أفعل شيئا من أجلها عسى أن تستطيع الاستمرار في العمل لفترة مناسبة تجمع خلالها بعض المدخرات وتبدأ بها حياتها في بلدها! وتركتها دون وعد مني بشيء.. نظرا لأنني أعلم مسبقا أن مثل هذه الوساطات تفشل دائما مع أصحاب العمل.. وتثير ظنونهم تجاه من يتطوع بها.. وفي اليوم التالي مباشرة كنت أتحدث مع صاحب العمل فإذا أجدني أقول له دون سابق تدبير إن هذه الفتاة مظلومة فيما نقل إليه عنها من وشايات وأنها لم تقترف ما تستحق عليه الفصل، ومن الأفضل منحها فرصة أخرى حتى تتأكد من صلاحيتها للعمل. وكانت المفاجأة أن وافق صاحب العمل على إعطائها هذه

الفرصة الأخرى وإلغاء إجراءات سفرها، وطلبتها في مكتبها ورويت لها ما حدث، فلم تتمالك نفسها من البكاء فرحا وعادت إلى عملها بالتزام شديد ونشاط أكبر واقتصر حديثها مع الزملاء على شؤون العمل وحدها، وبدأت بالفعل تكتسب ثقة الآخرين بمن فيهم أصحاب العمل أنفسهم، ولاحظت خلال هذه الفترة كلما التقيت بها عرضا نظرة العرفان والشكر والاهتمام في عينيها، وبدأت أسألها من حين لآخر عن أحوالها وشؤون العمل وأساعدها بالمشورة الصادقة، وكان المفترض أن ينتهي كل شيء عند هذا الحد لكني وجدتها بغير وعي مني تسيطر على تفكيري وأنا الإنسان الملتزم الذي لم تكن له في يوم من الأيام أية علاقات نسائية، ولمست منها قبولا لتدخل في شئونها الخاصة، وبدأت ألبي لها حتى الطلبات الخارجة عن نطاق العمل كشراء بعض الأشياء أو إنهاء بعض الإجراءات المطلوبة في الغربة، وبدأنا نلتقي خارج العمل في الأماكن العامة وصارح كل منا الآخر بحبه وتعمقت العلاقة بيننا حتى أصبحت هي كل شيء في حياتي وأصبحت أنا كذلك كل شيء في حياتها، فكانت لي الحب والدفء والمتعة والإحساس بالذات وكنت لها - على حد قولها - الحب والأمان والحماية والصداقة.

وبعد التورط الكامل في هذه العلاقة كان لابد لي من وقفة مع النفس لإيقاف الانزلاق الكامل نحو الهاوية التي تؤثر على ديني ودنياي كما هو الحال دائما في هذا الطريق المظلم، وخاصة أنني كنت غير مستريح الضمير ودائم الندم بيني وبين نفسي لكني غير قادر في نفس الوقت على اتخاذ أي قرار نظرا لسيطرتها الكاملة على مشاعري.

ثم اتخذت أخيراً قرار الابتعاد عنها وبدأت في تنفيذه ونجحت في ذلك لعدة أيام، فاستخدمت هي كل أسلحتها الأنثوية لاسترجاعي، بما في ذلك الاستعطاف والإغراء وإثارة الذكريات، وحين هددتها بضرورة الابتعاد عن طريقي هددتني بدورها بإفشاء هذه العلاقة لزوجتي بما تملكه من أشياء وأدلة تثبتها!

ففكرت في الزواج منها تكفيرا عن جريمتي وحتى أستمتع بالحب معها في المستقبل دون إحساس بالذنب، وقلت لنفسي خلال تفكيري في ذلك إن ظهور هذه العلاقة إلى النور بالزواج وبالرغم مما سوف يترتب على ذلك من مشاكل وآثار سيئة على أسرتي، لهو أفضل من الخيانة الزوجية ومواصلة الانجراف إلى طريق الخطأ والغواية، لكن فكرة الزواج لم تلبث أن اختفت وتغلب الجانب العقلاني بداخلي على الجانب العاطفي.

ولجأت بعد ذلك إلى مخاطبة الجانب الديني فيها وكيف أن هذه العلاقة محكوم عليها بالفشل الحتمي ذات يوم قريب أو بعيد، واتفقنا على إنهائها تدريجيا وأن تحصل هي على إجازة لمدة شهرين وتسافر إلى بلدها، فما أن ترجع حتى أسافر أنا في إجازة مماثلة، فيطول ابتعادنا عن بعضنا البعض أربعة شهور كاملة، ويسهل علينا بعد ذلك إنهاء العلاقة، وسافرت بالفعل فلم تغب أكثر من أسبوعين ورجعت العلاقة أكثر عمقا وجرأة!

لقد دعوت الله كثيرا أن يخلصني من هذا البلاء وسافرت العمرة خصيصا من أجل ذلك.. وقد أصبح الحل الوحيد الباقي أمامي الآن هو الاستقالة وإنهاء عملي في الغربة والعودة لبلدي غير أنني أتشكك في جدوى هذا الحل، فماذا أفعل وقد أصبحت الآن على شفا حفرة من الجنون والضياع وأخشى أن أقابل ربي في أية لحظة وأنا مستمر في هذه الجريمة الفاحشة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من لا يقدر على نفسه.. لا يقدر على الآخرين يا صديقي.. ولهذا فلسوف تظل هذه «المشكلة» قائمة في حياتك إلى أن تنجح في الانتصار على نفسك.. والكف عن الاستمرار في هذه العلاقة الخطيرة التي تعدك بالقلاقل والاضطرابات في حياتك العائلية فضلا عما تفسد به سلامك النفسي بالإحساس المدمر بالذنب والإثم.

ولست أعتقد أن في الحياة كلها إغراء يستحق أن يتعذب الإنسان من أجله بمكابدة الإحساس المرير بالذنب والإثم ومعايشة الخوف من لقاء ربه وهو مكبل به، فضلا عن الخوف من آثار هذا الإغراء المدمر على استقرار حياته العائلية وجدارته بالاحترام والثقة من شريكة الحياة والأهل والآخرين.

ولهذا، فإني أقول لك إن معركتك للتخلص من هذه العلاقة الآثمة هي في الأساس معركة داخلية تدور رحاها في أعماقك وحدك، ولا أثر حقيقياً للطرف الآخر في استمرارها أو حسمها في الوقت الملائم، مهما كانت مغرياته أو أسلحته أو تهديداته، وحين تنتصر على «الخائن الصغير» الذي ينطوي عليه صدرك ويجذبك إلى هذه السيدة الشابة، فلسوف تملك إرادتك معها وتنجح في وضع حد لقصتك معها مهما أرعدت بالوعيد والتهديد.

والحق أنني لا أفهم كيف يخشى رجل امرأة يريد قطع علاقته غير المشروعة بها والعودة إلى الطريق القويم، ولا كيف يمكن أن يخضع لتهديداتها بإفشاء سر علاقتها به فيتراجع عن قراره بقطعها ويرجع إلى النهل من معينها، ذلك أن هذه التهديدات الجوفاء إذا نفذتها صاحبتها بالفعل إنما تصيب صاحبتها بالضرر بأكبر مما تصيب الطرف الآخر به اجتماعياً وعائلياً وإنسانياً، ولا شك أن شريكتك في هذه العلاقة إذا وثقت من أنها لن تجني ثمرة حقيقية لفضح سرها معك لزوجتك كإرغامك أدبياً أو من باب الحرج الاجتماعي على الزواج منها، فإنها سوف تتردد ألف مرة في إفشاء هذا السر، اللهم إلا إذا كانت قد تملكتها روح الانتقام الشريرة وتحول ما تزعمه من حب غير صادق لك إلى كراهية شعواء ورغبة عارمة في تدميرك وهذا ما لا يحدث أبدا في حالة الحب الحقيقي المبرأ من مثل هذه النزعات المدمرة سواء استمرت العلاقة أو انقطعت.

ولقد لفت نظري في وصفك لما تمثله لك هذه السيدة الشابة قولك إنها قد أصبحت بالنسبة لك الحب والدفء والمتعة.. وإثبات الذات، ووصفها هي لك بأنك قد أصبحت بالنسبة لها الحب والأمان والحماية والصداقة!

وتوقفت أمام ما تعنيه أو ما كانت تعنيه لك في بداية علاقتك بها من إثبات الذات! وأحسب أنك كنت صادقا تماما في هذا التعبير لأن جزءا من اندفاعك نحوها كان يتمثل من حيث لا تدري في هذه العبارة.. إثبات الذات.. أي الإحساس بالزهو الداخلي لجدارة المرء برفقة امرأة شابة جميلة لا يحل له نيلها بالطريق المشروع إلا عبر خطوات عائلية طويلة وأعباء جسيمة.. ولو ناقشت الأمر مع نفسك الآن بعد فورة الاندفاع العاطفي المبدئية لوجدت أنك لست في حاجة إلى إثبات ذاتك بمثل هذه العلاقة غير المشروعة.. ولا هو من الفخر والزهو في شيء أن يشعر الإنسان بجدارته عن طريق التورط في مثل هذه العلاقة الخطيرة.. لأن أي رجل عابث مهما صغر شأنه يستطيع أن يعثر على من تتورط معه في علاقة مماثلة كما أن أي امرأة غير متحفظة تستطيع كذلك لو أرادت أن تنشىء مثل هذه العلاقة مع طرف آخر في أي وقت، ولا «بطولة» في ذلك ولا فخر وإنما البطولة الحقيقية هي في الالتزام الخلقي ومقاومة الإغراءات والاعتصام بالإخلاص والوفاء لمن ارتبطت به حياة الإنسان..

وكما لفتت نظري هذه العبارة التلقائية في رسالتك، فلقد لفت نظري أيضاً وصفها لما تمثله أنت لها من حب وأمان وحماية وصداقة ذلك أنه وصف لا يخلو من صدق في الحقيقة.. ولا يخلو في نفس الوقت من شيء من الاعتبارات العملية التي لا علاقة لها بالعاطفة. فالأمان والحماية هنا ليس هما بالتأكيد الأمان والحماية العاطفيين اللذين تشعر بهما المرأة إلى جوار من تحب في الظروف العادية، وإنما هما أمان وحماية يرتبطان بشكل أو بآخر بأوضاع هذه السيدة الشابة في الغربة.. وحاجتها إلى حمايتك لها في العمل من مؤامرات الزميلات ووشايتهن بها، ومن خطر الفصل من العمل والعودة إلى بلدها.. أي حاجتها في النهاية إليك كمدير بالشركة وشخص موثوق به من جانب أصحاب العمل لكي تأمن الفصل المفاجىء والطرد من العمل.. فأي شيء في ذلك يشعرك بإثبات الذات «كرجل» وإنسان يا سيدي؟

إن بداية علاقتها بك ترجح هذا الاحتمال إلى حد كبير فلقد اقتربت منك لأول مرة لكي تستشفع بك لدى أصحاب العمل لوقف قرار فصلها، وهي بداية «مصلحية» وليست عاطفية مجردة من الحسابات العملية بأي حال من الأحوال ولست أريد أن أحكم على حقيقة مشاعرها تجاهك الآن إذ لا يحكم على القلوب إلا خالقها سبحانه وتعالى، لكني أريد أن أقول لك فقط إنه بقليل من مغالبة النفس والحزم والإرادة تستطيع إيقاف تورطك في هذه العلاقة قبل أن تخرج آثارها السلبية المؤكدة على حياتك العائلية عن نطاق السيطرة فتدفع ثمناً فادحة لعلاقة تسلم أنت في أعماقك بأنها سوف تصل إلى نهايتها المحتومة إن آجلاً أو عاجلاً.

فإذا كان من المتاح أن تنتهي هذه العلاقة بغير أن تخلف وراءها بصمات غائرة على علاقتك بزوجتك أو بغير أن تدمر حياتك العائلية ووضعك الاجتماعي كرب أسرة، فما وجه الحكمة في أن تنتهي نفس هذه العلاقة بعد حين وقد خلفت وراءها حطام أسرة صغيرة كانت سعيدة ومستقرة وآمنة قبل التورط فيها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكلام المر

لا أعرف كيف أبدأ رسالتي هذه إليك، ولا ماذا سيكون رد فعلها على من كتبتها من أجله.. لكنني شعرت برغبتي الشديدة في أن أستعين بك على حل مشكلة حياتي.

فأنا سيدة في الثامنة والثلاثين من عمري نشأت في أسرة متحابة ومتعاونة على ظروفها، وكان أبي موظفا بسيطا وأمي ربة بيت لا تعمل ونحن الأبناء أربعة «ولدان وبنتان» أنا أكبرهم، وقد نشأنا فوجدنا أبانا يكافح لتوفير متطلبات الحياة لنا بمشقة بالغة وأمي تساعده بكل ما تملك من قدرة وموهبة على تدبير شؤون البيت، وألفنا أن نعرف شيئا من يسر الحياة في أوائل الشهر وأن نتحمل جفافها في بقية أيامه، كما اعتدنا أيضا أن نشتري بالأجل بعض الضروريات من المحل التجاري الذي يتعامل معه أبي منذ سنوات طويلة، وتربطه بصاحبه صداقة قديمة، وكان هذا الرجل كما عرفت وأنا ما زلت بعد طفلة صغيرة.. هو ملجأ أبي الأخير إذا استحكمت الأزمة، فيقترض منه بضعة جنيهات إلى أن يأتي الفرج.. وتقدمنا في مراحل التعليم، وحققنا جميعا تفوقا دراسيا بغير الحاجة إلى الدروس الخصوصية، وحين تفتحت مشاعري للحياة اتجهت تلقائيا إلى الابن الأصغر لصاحب المحل التجاري.. فلقد لفت نظري بوسامته وأدبه الجم وخجله.. وتمنيته لنفسي.. وانتظرت أن يتقدم أي خطوة في طريق الاقتراب مين، فلم يفعل.. فازددت اهتماما به، وتشجيعا له على البوح لي بمشاعره، إلى أن صارحني بها بعد صبر طويل وصارحته بحبي له، وفهمت منه أن أحد أسباب تردده في مصارحتي بمشاعره هو أنني أدرس بكلية مرموقة.. وهو قد تعثر في دراسته ولم يكمل تعليمه العالي.. فتعجبت لأن يكون ذلك سببا لعدم ترحيبه بي في البداية، وظننت لبعض الوقت أنه لا يراني مناسبة له من الناحية الاجتماعية، لأن أحواله المادية أفضل بكثير من أحوالنا، وأشقاءه كلهم يشغلون مراكز عالية ويقيمون جميعا في بيت يملكه الأب في نفس الحي الذي نقيم فيه، ولم أخف عليه هذا الظن. وارتبك كثيرا وأحمر وجهه، وهو شديد الخجل والحياء بطبعه، وأقسم لي أنه لم يفكر في ذلك لحظة واحدة، وارتحت لما قال.. وواصلت دراستي في اطمئنان.. وفي إجازة الصيف تقدم لخطبتي بعد صراع قصير مع أشقائه الذين رفضو ارتباطه بفتاة من أسرة بسيطة مثلي، في حين لم يعارض والده رغبته ربما إشفاقا عليه من سوء حظه في التعليم، وهو الوحيد الذي يساعده في العمل، وربما إكراما لصداقته القديمة لأبي.

ومن اللحظة التي أعلنت فيها خطبتي صارحني خطيبي في حياء برغبته في أن يخصص لي مصروفاشهريا من جيبه لأستعين به على دراستي والحفاظ على مظهري، ولم أجد مانعا في ذلك، فأنا في حاجة شديدة لمثل هذا المصروف، وبدأ بالفعل يعطيه لي، وبدأت أعتمد عليه في حياتي، بل إنني في بعض الأحيان كنت أساعد بجزء منه أمي سرا.

وتخرجت متفوقة وأتاح لي تفوقي الحصول على عمل ممتاز وبدأت الاعتماد على نفسي.. وبعد عامين من تخرجي تم زواجنا وتكفل خطيبي بمعظم تكاليفه.. وأقمت

في شقة صغيرة بالبيت الذي تملكه أسرة زوجي في المطرية ويقيم فيه كل أبنائها.

وتخرج أخوتي جميعا وعملوا وتزوجت شقيقتي وأخي الذي يليها، وأحيل أبي للمعاش.. وحصلت أنا على الماجستير، وبدأت أعد للدكتوراه وأتيحت لي فرصة السفر إلى أوروبا لإعداد المادة العلمية للرسالة.. فلم يرفض زوجي سفري، ولم يقف في طريقي بالرغم من أنني كنت قد أنجبت طفلة وطفلا، بل وساعدني ببعض المال على إنهاء مهمتي، واستغرقت بعثتي بضعة أشهر ورجعت وحصلت على الدكتوراه وسعد زوجي بحصولي عليها كثيرا.. وأتاحت الدرجة العلمية فرصة الانتداب إلى عمل جديد بمرتب مغر في هيئة دولية. وخلال هذه السنوات كان والد زوجي قد توفي، واستقل زوجي بإدارة تجارته نيابة عن إخوته، وبدأ زوجي يشكو لي من حين لآخر من تعنت بعض الإخوة معه وكثرة مطالبتهم له بالمال بصفة شهرية دون مراعاة لالتزاماته وديون التجارة.. ورحت أشجعه على الصمود وتخطي الصعاب، لكن الأمور صارت في الاتجاه العكسي وساءت أحوال التجارة أكثر وأكثر، وتراكمت الديون، وساءت علاقة زوجي وإخوته حتى اتهمه أحدهم صراحة بالسرقة، مع أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه طاهر اليد، وكان يعاني ضائقة شديدة وتوقفت عن أخذ أي مصروف للبيت والأبناء منه، واعتمدت على مرتبي في الإنفاق على الأسرة.. لكي يحاول إنقاذ التجارة من الانهيار ومرت به وبي فترات عصيبة.. وازدادت العلاقة بين زوجي وبعض إخوته تدهور حتى هدده أحدهم باللجوء للقضاء، فانهار زوجي باكيا وطلب منه أن يتسلم منه التجارة ليديرها هو أو من يراه ويعطيه أي مصروف شهري يقدره له وتم ذلك بالفعل وأصبح زوجي ينهض من نومه صباحا، فلا يجد ما يفعله سوى توصيل الطفلين للمدرسة وإعادتهما منها في حين أذهب أنا إلى عملي في السابعة صباحا، ويستغرقني حتى الخامسة مساءً.

أما مصروفه الشهري، فلم يكن يكفي نفقات البيت لأكثر من أسبوع، وأتحمل أنا بقية النفقات. وشيئا فشيئا لاحظت أن زوجي يزداد صمتا وانطواء واستغراق في ذاته.. فتصورت أن بطالته هي السبب الأساسي لحالته هذه، وجلست معه ذات مساء وناقشته في أحواله.. وألححت عليه بضرورة أن يمارس أي عمل.. فسألني وأين هو العمل الذي أمارسه.. وأنا لا رأس مال لدي.. ولا شهادة؟ فبكيت إشفاقا عليه وأنا أعلم جيدا ما يدور في نفسه وما يستشعره من حرج كرجل من قيامي عنه بمعظم مسؤولية البيت.. وعرضت عليه أن أسعى لإلحاقه بعمل في الهيئة التي أعمل بها وسعيت بالفعل لدى مديري في ذلك.. فقال لي إن العمل الوحيد المتاح حاليا هو عمل سائق بعقد مؤقت على إحدى سيارات الهيئة.. وترددت في عرضه عليه لكن ازدياد قلقي عليه من بطالته دفعني لأن أعرض عليه هذا العمل، فقبله بعد تردد وأصبح يعمل معي في الهيئة نفسها.. وتفاقمت مشاكل التجارة حتى انقطع عن زوجي مصروفه وأعتبره شقيقه الذي تولاها مديناً لها وليس مستحقاً في أي عائد منها.

ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك في علاقتي به.. فلقد وجدت زوجي يتحفظ تدريجيا في تعامله معي، ويبتعد عني، ويصبح شديد الحساسية تجاهي، فإذا تلاحينا في أي

أمر من أمور الحياة الزوجية المعتادة بين كل زوجين أجده شديد الاكتئاب والحزن بعدها لفترة طويلة.

ثم حدث ذات مرة أن تشاجرنا لسبب عارض.. فإذا بي أجدني ولأول مرة في حياتي معه أفقد أعصابي ويفلت لساني ببضع كلمات جارحة له ولرجولته.. وأشير إلى تحملي للعبء الأكبر من المسؤولية المادية عن الأسرة وإلى كسله وقلة طموحه.. و«خيبته» وغير ذلك مما أشعر بالخجل منه كلما تذكرته.. فإذا بزوجي ينفجر فيّ بدوره ولأول مرة أيضا ويقول لي إنه قد صبر طويلا على سوء معاملتي له، وإشعاري له بالعجز كرجل و «بامتيازي» عليه بالشهادة والمنصب والمرتب الكبير من الهيئة وأنني أعيره بظروفه وسوء حظه مع أنه لم يعيرني من قبل بظروفي السابقة حين كنت فتاة بسيطة وكان هو الشاب القادر ماليا وابن الأسرة الكبيرة وأنه يرى أن المشكلة ليست في ظروفه وحدها لكنها في تغير مشاعري نحوه وإحساسي بإنني أصبحت أشعر بعد تحسن ظروفي بأنني أستحق زوجا أفضل منه يتناسب مع شهادتي ووضعي ووظيفتي.. إلخ

ولا أدري أين كان عقلي حين استجبت لهذا الاستفزاز، فإذا بي أجيبه بأن كل ما قال صحيح.. وإنني أستحق من هو أفضل منه بالفعل بعد أن صبرت على ظروفه كثيرا، ورأيت أنه قد استنام للوضع الحالي بلا أي أمل في التقدم.. وأفقت من اندفاعي حين وجدته ينظر إلي ذاهلا ومتألما ثم يقول لي بصوت خافت عندك حق في كل ما تقولين «يا دكتورة».. ولن أقف في طريقك بعد الآن.. أنت طالق! ثم غادر الشقة وأنا مازلت ذاهلة.

وتصورت أنه سوف يبيت ليلته في شقة والدته في نفس البيت ويرجع في الصباح ويردني.. فإذا الأيام تمضي بعد ذلك ولا أثر وبعد أسبوعين تنازلت عن كبريائي وصعدت إلى شقة والدته لأبحث عنه وأعتذر له أمامها وأقبل رأسه وأطلب منه الصفح عني.. فقابلتني والدته بجفاء وانهالت علي لوما وتقريعا وتذكيرا لي بما كان من حالي وحال أسرتي قبل زواجي من ابنها، وبما فعله زوجي معي.. إلخ، وتحملت كل ذلك صابرة وبكيت أمامها وأعتذرت وقلت لها إنني شعرت بخطئي من اللحظة الأولى وإنني نادمة عليه، وأعرف أنني لا أستحق ظفر زوجي لأنه إنسان طيبوحنون ومهذب وكريم ولم يخطىء في حقي أبدا، وأنني أريدها أن تتوسط لديه وتحثه على أن يصفح عني ويردني إلى عصمته ليس فقط من أجل الطفلين وإنما من أجلي أنا أيضا لأنني أحتاج إليه.. ولا أستطيع الاستغناء عنه.. فرق قلب والدته لي لأول مرة منذ بدأ الحديث وشاركتني البكاء، ثم قالت لي في النهاية : ولكن أين هو لكي أقول له كل ذلك!

وعرفت منها أنه قد طلب منها مساعدته على السفر للعمل في إحدى الدول الأوروبية مع أصدقاء له سبقوه إلى هناك، وأنها باعت شهادة إدخار وأعطته ثمن التذكرة ومبلغا لمواجهة نفقات الحياة، وإنه قال لها إنه سيكافح لكي يصنع نجاحه في الغربة ولن يرجع إلا إذا استقرت أحواله، وطلب منها استمراري في المسكن رعاية الطفلين إلى أن يبلغا سن حضانته لهما وانهرت حين علمت منها ذلك

وبكيت طويلا وتساءلت : ماذا فعلت بنفسي وحياتي في لحظة من الحمق والجنون؟

لقد أحببت زوجي هذا وأنا في السابعة عشرة من عمري، وما زلت أحبه ولا أنسى له أفضاله عليّ، لكنها ضغوط الحياة القاسية التي أوقعتني في الخطأ وأفقدتني والد طفلي فماذ أفعل يا ربي لكي أسترد زوجي؟

لقد انتظرت أن يرق قلبه لي ويتصل بي عدة أسابيع دون جدوى ورجوت والدته أن تلح عليه حين يتصل بها تليفونيا في أن يردني إلى عصمته بكلمة واحدة.. ولسوف أظل في انتظاره إلى أن يرجع مهما طال الانتظار.. لكنه لم يتصل طوال فترة التي يستطيع مراجعتي خلالها.. وسألتني والدته إذا كنت أريد أن يرسل توكيلا لشقيقه لكي يطلقني به إذا اتصل بها من الخارج، فبكيت وصرخت بأنني لا أريد ورقة الطلاق ولا أريد إلا أن يردني زوجي إلى عصمته ويغفر لي «قلة أدبي» وطول لساني..

وهأنا إلجأ إليك الآن لكي تعينني على تحقيق هذا الأمل، فلقد مضت عشرة شهور على سفر زوجي دون أن يتصل بي مرة واحدة.. ولست أعرف وسيلة للاتصال به لأنه يتكلم مع والدته من التليفونات العامة وقد علمت أنه يعمل «نقاشا» باليومية مع أصدقائه ويقيم مع 7 أفراد في شقة ضيقة من غرفتين، ولا يكاد دخله يكفي نفقات حياته فضلا عن أنه يعيش في خوف دائم من أن ترحلة الشرطة إلى بلده في أي وقت لأنه دخل هذه الدولة بتأشيرة سياحية وانتهت وليس من حقه العمل فيها دون تصريح.. فلماذا يتحمل هذا العناء.. وله في مصر بيت وزوجة نادمة وطفلان يسألان عنه كل يوم، وأسرة، وأم وإخوة؟

أنني أرجوك أن تناشده العودة إلي وردي إلى عصمته لأنني في حاجة شديدة إليه وطفلاه يفتقدانه بشدة وهو الأب العطوف الحنون. وأرجوك أن تقول له على لساني إنني بدونه لا أساوي شيئا.. ومستعدة للاستقالة من عملي في اليوم الذي يرى فيه أنه هو قد أصبح يكسب دخلا يكفي لمطالب الأسرة والأبناء، فقط أريده أن يرجع إلي وإلى طفليه وأمه التي تفتقده وشقيقته الكبرى التي مازالت تخاصمني وتعتبرني المسؤولة عن «تطفيشه» ألتمس لها العذر في ذلك.. فهل يرجع ويستجيب ويصفح يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أرجو ذلك من كل قلبي يا سيدتي.. فالحق أنني استشعر صدق ندمك على ما بدر منك تجاهه وصدق مودتك له ورغبتك في استعادته لنفسك وطفليك والحفاظ على كيان أسرتك الصغيرة معه. وهذا وحده يكفي لأن يشفع لك لدى زوجك «السابق» في أن يغفر لك جرحك لكرامته كرجل ويواصل رحلته معك.

غير أنني أشعر بأنك قد استدرجت بغير وعي منك خلال الفترة العصيبة السابقة في حياتكما إلى التعامل معه على نحو أشعره بتراجع أهميته بالنسبة إليك كزوج ورب للأسرة وأب للأبناء، وأقول لك إنك قد «استدرجت» لأن هذا التطور الخطير في علاقة الزوجة بزوجها يبدأ غالبا على نحو تدريجي ويضطرد دون أن تلتفت في البداية لخطورته على علاقتها به إلى أن ينفجر الموقف بينهما فجأة كما تسري النار حتى الرماد ثم نفاجأ بها وقد اشتعلت دون سابق إنذار.

ولقد أشرت في رسالتك إلى أنه قد بدأ يتحفظ معك ويبتعد عنك ويصبح شديد الحساسية تجاهك ويستسلم للحزن والاكتئاب لفترات طويلة عقب كل ملاحاة بينه وبينك، دون أن تنتبهي إلى أنه قد بدأ يشعر بالنقص تجاهك، وبالعجز كرجل عن أن يكون عائل الأسرة الرئيسي.. فيدفعك هذا للتنبه في الوقت المناسب إلى تفادي كل ما يشعره بعدم الجدارة كرجل في علاقتك به أو يدفعك ذلك إلى التفكير جدية في إعانته على أمره وحثه على ممارسة أي عمل مناسب له أو تشجيعه على القيام بأي مشروع صغير ولو في بيته ومساعدته على ذلك ببعض مدخراتك.

فكان أن واصلت النار سريانها حتى الرماد حتى جاءت لحظة الانفجار، وبدلا من أن تحترسي من الاقتراب من «الدائرة الحمراء» التي لا تسامح لدى زوجك مع من يقترب منها وهي دائرة إحساسه بالعجز وعدم الجدارة وتميزك عليه، إذا بك تنفذين إلى قلب هذه الدائرة مباشرة وتعيرينه بظروفه وانعدام طموحه وكسله «وخيبته»، فإذا انفجر فيك لأول مرة واتهمك بالإحساس بعدم جدارته بك كزوج لك، لا تستشعرين خطورة الموقف ولا أنه قد تجاوز دائرة الخلاف العارض بين أي زوجين إلى ما هو أبعد من ذلك مدى، وإنما تستجيبين للأسف لإغراء التصعيد والحماقة وتؤيدين ولو كلامية إتهامه لك بأنك تتطلعين إلى زوج أفضل منه!

ولو أنك قد أدركت عمق الجرح الذي صنعته هذه الكلمات المرة في أعماق زوجك لترددت ألف مرة قبل النطق بها.

ومن الكلام المر ما يمكن أن يكون لعنة على قائله قبل أن يكون كذلك على من يوجه إليه.

فلقد أشعرت زوجك من غير وعي بأن من كان «الأرقى» ماديا وعائليا واجتماعيا في الزمن القريب قد أصبح الآن «الأدنى» والأسفل حتى ليشعر بعدم جدارته بك وبرغبته في أن يعفيك من قيد الوفاء له لكي تنالي من الحياة ما هو أفضل من استمرار الارتباط به.

ولا شك أن كلا منكما مخطيء في ظنه بالآخر.. وفي ظنه بنفسه كذلك! فلا أنت يا سيدتي رغم قلة احتراسك في التعامل معه بعد تغير أحواله تشعرين بالفعل بعدم جدارته بك ولا بحاجتك إلى من هو أفضل منه ولا هو كما يعتقد كان يفسح الطريق أمامك لكي تنالي هذا الأفضل حين ألقى عليك يمين الطلاق واختفى من حياتك وحياة طفليه الصغيرين.. وكلاكما فيما أتصور أكثر احتياجا إلى الآخر مما يظنه شريك حياته فيه.. لكنه مرة أخرى الحمق والاندفاع والكلام المر الطائش الذي يندفع من فم قائله فيزلزل الحصون المنيعة ويخنق زهور الحب فوق أغصانها.

فلقد تصور زوجك بسبب هذا التراشق الأحمق بينكما وما سبقه من تغيرات فات عليك تقدير خطورتها في حينها أن دوره في حياتك قد انتهى بعد أن كان «أملا» بعيد المنال لك في ظروفك السابقة.. وبعد أن ساعدك على أمرك ودراساتك العليا وارتقيت أنت في السلم الاجتماعي خطوات موفقة في حين قلبت له هو الدنيا ظهر المجن ونزل بضع درجات في الاتجاه العكسي.. فتوهم خطأ أنك ممن يتعاملون مع الآخرين بمنطق السلطان سليم في التعامل مع سلطان المماليك طومان باي.. وما أكثرهم في الحياة للأسف.

فلقد هزمت جيوش سليم جيش طومان وجيء به إليه مغلولاً، فأمر بحل قيوده وتحركت له عواطفه كما قال ابن إياس في تاريخه، وأذن له بشهود الاجتماعات التي يعقدها للتداول في أمر البلاد التي فتحها وكان يسأله في مسائل كثيرة عن أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية ويستفيد بخبرته بها وظل على هذا الحال عشرة أيام، وفي اليوم العاشر رأى سليم الأول أنه لم يعد في حاجة إلى مشورة طومان باي، فأمر بشنقه وتعليق جثته على باب زويلة!

وهكذا قد يفعل بعض البشر أحيانا بمن يكونون في حاجة إليهم في بعض مراحل حياتهم، فإذا تغيرت أحوالهم إلى الأفضل وانتفت الحاجة إلى من كانوا في حاجة إليهم أمروا «بشنقهم» معنوياً واستغنوا عنهم! لكني لم أشعر خلال قراءتي لرسالتك بأنك واحدة من هؤلاء البشر.

ومن واجب زوجك بالفعل تجاه نفسه وتجاه طفليه وتجاهك أن يعيد النظر في موقفه منك وفي غربته غير المجدية كثيرة هذه في ظل ما أعرفه عن ظروف العمل في هذه الدولة الأجنبية.. فالحق أنك في حاجة إليه بأكثر مما يتصور هو نفسه ناهيك عن حاجة طفليه إليه.. فليرجع إذن ولو بعد وقت مناسب إذا أراد جمع أي مدخرات محدودة تسمح له ببدء أي عمل صغير في بلده وليعدك إلى عصمته توثيقا لروابطكما الأبدية معا.. وليؤمن دائما بأنه بفضائله الأخلاقية وحسن عشرته لمن يشاركهم حياته وحسن رعايته لأطفاله.. إنما يؤدي دورا مهما في الحياة مهما كان وضعه المادي والاجتماعي فيها ويفضل كثيرين ممن أتاحت لهم الحياة بعض ما لم تتحه له حتى الآن.. وإذا رغب في أن يتحدث معي حول هذا الأمر لوقت أطول، فليتفضل بالاتصال مساء السبت بعد القادم بإذن الله أو فليكتب لي برقم تليفون أستطيع الاتصال به خلاله وشكراً له ولك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دوائر الدوامة!

أرجو أن يتسع صدرك لمشاتي لأني في أشد الحاجة إلى مشورتك، فأنا شاب في الثلاثين من عمري أعمل بالتعليم، ومن أسرة طيبة، ومنذ أربع سنوات أعجبت بفتاة كانت تتلقى مني درسا خاصا وهي في السنة الأولى بكليتها الجامعية ووجدت فيها كل المواصفات التي أتمناها في شريكة حياتي، فتحدثت إليها برغبتي في الارتباط بها ووجدتها قد سبقتني إلى الإعجاب بشخصي وتتمنى الارتباط بي، غير أنه كانت هناك مشكلة والدها يرفض أن ترتبط بأحد قبل أن تنهي دراستها وتتخرج مع وعد منه لها بأن يزوجها ممن تختاره لنفسها إذا التزمت بشرطه.

وأكدت لها استعدادي لانتظارها أربع سنوات حتى تتخرج ويتحقق شرط والدها وتعاهدنا على ذلك ثم سافرت بعد بضعة شهور للعمل بإحدى الدول العربية وظللت على عهدي لفتاتي وترقبت مرور الشهور والسنين لكي أتقدم إليها. حين بلغت هي السنة الثالثة الجامعية فاتحت والدها برغبتي، فرحب بي أشد الترحيب وطلب مني الانتظار للعام المقبل حتى تتخرج ووعدني بأن تكون ابنته لي وليس لأحد غيري، وأطمأننت إلى وعده وسافرت إلى عملي وتواصلت الرسائل بيني وبينها، ورجعت في إجازة العام التالي.. وتحدثت إلى عم فتاتي برغبتي في تحديد موعد مع شقيقه لأتقدم إليه مع أسرتي طالبا يد ابنته، ووعدني العم خيراً .. وبعد ساعات رجع إلي بالرد، فإذا به الرفض القاطع الباتر بلا أسباب ولا مبررات، وأصابني الذهول ودهش معي أهلي الذين كانوا قد عرفوا فتاتي خلال السنين الماضية وأحبوها وتعلقوا بها وكانت تقوم بزيارتهم خلال سفري، وحرت فيما أفعل إزاء هذه المفاجأة غير السارة، وحاولت أن أعرف سبب الرفض، فعرفت أن والد الفتاة قد اتفق مع أحد أقاربه على تزويجها له وأنها في حالة نفسية سيئة لكنها لا تستطيع إقناع أبيها بالوفاء بوعده أياها ألا ترتبط إلا بمن تختاره، ولم استسلم لليأس من تغيير موقفه ووسطت لديه كل من آنست منه استعدادا للتدخل في الموضوع، فأصر على رأيه إصرار غريباً، وحاولت الفتاة معه بكل ما أوتيت من جهد، فكان رده على كل محاولة من جانبها إقناعه بقبولي هو الضرب المبرح واشتد ضيقي وكربي إلى أن جاء يوم وقالت لي فتاتي إنه لا فائدة من المحاولة مع أبيها لأنه عنيف للغاية وعنيد ويريد على حد تعبيرها أن «يبيعها» لمن يستطيع أن يدفع أكثر ونصحتني النصيحة اليائسة بألا أضيع ما بقي من إجازتي في محاولة نطح الصخر الذي لا يلين، وأن أرتبط بفتاة غيرها. وفي فترة ضيق بكل شيء سلمت باليأس من فتاتي، وحاولت شغل فكري عنها بالارتباط بغيرها.. وبالفعل تقدمت إلى صديقة لها لا تعرف عن قصتنا شيئا سوى أنني تقدمت لطلب يدها ورفض والدها طلبي. ورحب بي والد الصديقة لكنه أصر على ألا تكون هناك فترة خطبة وأن أعقد القران على الفور ولم أجد مانعا من تلبية رغبته، فتمت الخطبة وعقد القران خلال أسبوع واحد، وانتظرت أن تشغلني هذه الخطوة عن فتاتي السابقة واستريح من التفكير فيها، فلم يتحقق ذلك وظللت مشغول الفكر بها بالرغم من عقد قراني على خطيبتي وخطبة فتاتي إلى قريبها وازدادت فترات

صمتي وانشغال فكري وأنا مع خطيبتي، فلم أجد مفرا من مصارحتها بما أعانيه ووجدت لديها صدرا رحبا لهمومي وحاولت التخفيف عني بقدر الإمكان، بل وحاولت أيضا أن تكون واقعية وأن تساعدني على تقبل الحقائق، فأبلغتني بأن فتاتي السابقة مريضة وأنها لن تغضب إذا اتصلت بها للاطمئنان عليها وتوديعها قبل سفري إلى عملي، واتصلت بفتاتي السابقة بالفعل ووجدتها في حالة سيئة، فضعفت إرادتي واعترفت لها بأنني ما زلت أحبها ولا أستطيع نسيانها والبعد عنها.. فقالت لي بصوت حزين إنه قد فات أوان هذا الحديث وأنه على كل منا أن يتقبل أقداره، ويكفيها أنها لم ترفضني بإرادتها ولم تقبل خطيبها الذي لم تشعر معه بالانسجام حتى الآن برغبتها. وسافرت مضطرباً ومهموما.. وبعد سفري بفترة قصيرة رحل والد فتاتي الأولى عن الحياة، وطلبت مني خطيبتي في اتصال تليفونى بيننا أن أواسيها في فقده، فتعجبت لتصاريف القدر.. وازداد شعورى بالندم على تسرعي في عقد قراني على فتاة أخرى سواها.. وأصبح شاغلي الأكبر منذ ذلك الحين هو كيف أستطيع حل مشكلتي بغير أن أظلم خطيبتي التي احتوت انشغال فكري بغيرها.. ولا ترفض أن تكون زوجة ثانية إذا كان ذلك سوف يسعدني ويحقق راحتي، فماذا أفعل يا سيدى وكيف أخرج من دوائر هذه الدوامة التي تدور بي بعنف منذ علمت بوفاة والد فتاتي الأولى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

إذا كنت في رد سابق قد أذنت الاختيار العاطفي لزوج عاشر زوجته ٢٢ عاما، فلم ينكر عليها شيئا وزوجة عاشرت زوجها ربع قرن من الزمان بلا مشاكل جدية، فما أن التقى كل منهما بالآخر بعد غيبة السنين حتى تجدد الحب القديم الذي سبق زواج كل منهما.. وهجر الرجل زوجته وأبناءه الشباب الذين يرون فيه مثلهم الأعلى وهجرت المرأة زوجها وأبناءها الثلاثة الذين يرون فيها رمز الأم والعطاء وارتبط كل منهما بالآخر بالزواج وراحا ينهلان من نبع السعادة الأنانية على حساب عدد كبير من الضحايا، إذا كنت قد أدنت هذا الاختيار لكثرة من تساقطوا على جانبي الطريق إليه من الضحايا الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا جريرة في أن الحياة كانت قبل ربع قرن من الزمان قد حالت بين طرفي القصة وبين اجتماع شملهم قبل زواج كل منهما من آخر وإنجابه، فإني لا أستطيع أن أدين اختيارك العاطفي هذه المرة إذا اخترت تصحيح خطأ مازال في الإمكان تصحيحه بغير أن يدفع ثمن تداركه ضحايا كثيرون من الأبناء وشركاء الحياة. فأنت يا صديقي لم تبن بعد بخطيبتك الحالية حتى لو كنت قد عقدت قرانك عليها، وفتاتك كذلك لم تتزوج ممن أرغمها والدها على الارتباط به ولم تتأبد روابطها معه بالإنجاب حتى الآن ومن صالح كل الأطراف في هذه القصة ألا تتفاقم الأخطاء ويصبح لها ضحايا حائرون في المدى القريب كما أنه ليس من الحكمة تعذيب النفس والغير بأن ترتبط بمن ينشغل عنها فكرك وقلبك بغيرها ولا هو من صالح خطيب فتاتك الأولى أن تواصل طريق الارتباط به وقلبها يهفو إلى غيره ويرجوه، فكل بناء يقام على

غير أساس متين يتعرض للانهيار عند أول عاصفة، ولا داعي لتكرار الأخطاء البشرية.. وامتحان النفس والغير بمحنة معايشة الإنسان لمن لا يحبه، فإذا التقى ذات يوم بعيد أو قريب بمن حالت دونه الحياة تجدد الشوق القديم واضطربت الحياة العائلية.. وصدق عليه قول الشاعر :

ذو الشوق القديم وإن تسلى   مشوق حين يلقي العاشقينا

وإذا كان في مقدور المرء أن يحيا الحياة الطبيعية مع من يحب ويقصر عليه طرفه وحبه وفكره ويفرغ قلبه ممن عداه، فما معنى أن يعذب المرء النفس والغير بالارتباط بهم ومكابدة العيش معهم على غير رغبة حقيقية منه.. وفي ذلك ما فيه من الظلم لهؤلاء الغير قبل أن يكون للنفس ذاتها؟

إنني لا أنصحك أبدأ بقبول « تضحية » خطيبتك لك باستمرارها في حياتك مع ارتباطك بفتاتك الأولى إذا كانت في ذلك سعادتك.. فالحق أنني لم أفهم هذه «الواقعية» التي تتحدث عنها حين تروي عن خطتك أنها تحثك على الاتصال بفتاتك وتقبل بأن تكون زوجة ثانية لك معها، ولا أرى فيها أية واقعية حقيقية، وإنما أرى فيها انكسارة إنسانية لا يليق بك أن ترضاه لها وأرى فيها عجزة من جانبها عن تغيير ما تكرهه لنفسها كأية فتاة أخرى، ومخالفة لطبائع النفس البشرية لن تصمد طويلا للتظاهر بالقبول بها راغمة طلباً لإتمام الزواج منك، ثم لا يمضي وقت طويل إلا وتتفجر المشاكل ويزداد الموقف تعقيداً، وخاصة أن فتاتك الأولى لن تقبل ومهما كان حبها لك حقيقية وصادقة أن تتزوج بك وأنت زوج الأخرى لم تُبن بها بعد ولم تنجب منها وليس هناك ما يعوقك عن الاعتذار لها عن فصم الرابطة التي تجمعك بها والتفرغ بكليتك لمن ترغبها.. إن الإنسان حين تشتد رغبته في الأشياء قد تضعف حيلته أمامها وقد يبدي من المرونة والاستعداد للتضحية المهينة لنيلها ما لم يتوقعه هو من نفسه.. لكن النفس سرعان ما تتمرد على ضعفها السابق إذا تعلق الأمر بالعواطف ويندم على سابق قبوله لما لم يكن يرضاه لنفسه لولا أن كان في الموقف الأضعف ويطلب بشدة ما يريده لنفسه.. فتبدأ الصراعات وتتصاعد المشاكل.. فما حاجتك أنت وحاجة خطيبتك الحالية إلى كل هذا العناء ولماذا تقفز أنت بإرادتك هذه المرة إلى بؤرة دوامة جديدة قد تدور بك سنوات ثمينة من العمر ويكون لها ضحايا آخرون من الأبناء الحائرين في المستقبل؟

إن في مقدورك الآن أن تتعلق بطوق نجاة يخرج بك وبخطيبتك من دوائر الدوامة إلى شاطىء الأمان.. وذلك بأن ترفض شاكراً تضحيتها الممرورة هذه لك وتعتذر لها عن عدم الاستمرار في الارتباط بها وقلبك يهفو إلى غيرها لأن في ذلك ظلماً بينا لها وتعوضها بكرم وسخاء عن الأضرار المعنوية والنفسية التي ستتكبدها بانفصالك عنها، ثم تستكشف استعداد فتاتك الأولى للارتباط بك بعد الاعتذار لخطيبها.. وتستكملان القصة الناقصة بأقل الخسائر الإنسانية الممكنة فإذا كان في هذا الحل بعض الإجحاف بخطيبتك الحالية وبخطيب فتاتك الأولى وكل منهما لا ذنب له بالفعل في انشغال فكر شريكه بغيره، فإن عزاءهما عما يتعرضان له من إجحاف بهما هو أن الحل المؤلم الآن سوف يجنب كلا منهما في المستقبل القريب

التعاسة الحقيقية وتجرع كأس العيش مع شريك لم يكن يتمناه لنفسه ومضي في الارتباط به وكأنه ينفذ حكمة قدرية عليه لا يملك له دفعا، ولاشك أن كلا منهما يستحق من الحياة ما هو أفضل كثيرة من ذلك ويستحق أن يرتبط بمن يزهو به.. ويراه أمله الكبير في الحياة ولسوف تعوضه الأقدار عما يخسره الآن نفسيا ومعنويا خيراً عميماً بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الماء الفاتر!

أكتب إليك بعد أن ضاقت الدنيا وسدت أمامي جميع السبل، فأنا سيدة في السابعة والأربعين من عمري تزوجت منذ ٢٢ عاما من شاب تقدم إلى خطبتي، ولقى قبولا من أسرتي.. ودعيت للتعرف به في صالون البيت، فرأيته إنسانا هادئا ومهذبا ووسيما.. فوقع مني موقع القبول على الفور، وأعلنت لأبي ترحيبي به وتمت الخطبة والسعادة تملأ جوانحي.. وبدأت الاتصالات التليفونية اليومية بيننا كل مساء وبدأ يزورني كثيرا واقتربت منه وتفجرت ينابيع الحب المكتوم في قلبي تجاهه.. أما هو فقد كان هادئ المشاعر غالبا بالنسبة لي، وشكوت لأمي من ذلك، فطالبتني بالصبر عليه حتى تجمع العشرة بيننا ويتفجر ينبوع الحب في قلبه تجاهي، لأن ظروفه كشاب تختلف عن ظروفي.. فهو يكبرني بخمس سنوات، ولابد أنه قد خاض أكثر من تجربة عاطفية قبل أن يرتبط بي، أما أنا فهو أول إنسان في حياتي، ولهذا تدفقت عليه مشاعري بقوة، وأقنعت نفسي بصحة رأي أمي، وساعدني على ذلك أني لم أجد منه إلا كل رقة واحترام في التعامل معي، أما مسألة التحفظ في المشاعر هذه، فلا دليل عليها سوى ما استشعره أنا في أعماقي من أنه لا يحمل لي حبا ملتهبا يكافئ حبي له.. وكنت قد تخرجت في كليتي وعملت بوظيفة مناسبة.. وسألني خطيبي عن خطتي بالنسبة للمستقبل بعد الزواج، فصارحته بأنني أنوي الاستمرار في العمل بضع سنوات إلى أن أشعر بحاجة أبنائي إلي، فأتفرغ للبيت، وسعد كثيرا بهذا التفكير، وتزوجنا وسط فرحة الأهل وسعادتي الغامرة وكرست حياتي من اليوم الأولى للعناية ببيتي وزوجي وتوفير الجو الملائم له للتقدم في عمله، حيث كان يعمل بوظيفة تعده بمستقبل كبير وواجهنا في بداية حياتنا الصعوبات المادية المألوفة.. فكنت أساهم بمرتبي كله في البيت إلى جانب ما يعطيه لي أبي من مساعدات سرية.

وبناء على طلب زوجي أجلنا الإنجاب ثلاثة أعوام.. لكي تتوافر لدينا الظروف المناسبة قبل مجيء الأطفال، بالرغم من اعتراض أمي ولهفة أبي على أن يرى حفيدا له مني، ثم أبديت رغبتي لزوجي في الإنجاب بعد أن بلغت الثامنة والعشرين، فلم يعترض ولم يتحمس وشغلت عن فتوره للإنجاب بتطلعي لأن أنجب منه أطفالا.. وأنجبت طفلتي.. وبعد عامين آخرين أنجبت طفلي وكنت أرغب في إنجاب طفل ثالث لأني أحب الأطفال ونشأت بين خمسة من الإخوة، لكن زوجي أقنعني بالاكتفاء بما رزقنا به الله.. والاهتمام بالطفلين وحصلت على إجازة من عملي لرعاية الطفلين، وفي هذه الفترة أعير زوجي للعمل بإحدى المنظمات بالخارج ورغبت في مرافقته وإدخال الطفلين المدارس في مقر عمله.. لكنه أقنعني بأن أبقى في مصر على أن ألحق به لقضاء شهور الصيف معه..

وتمتعت مع زوجي بأجمل فترات حياتنا، واستمرت إعارته أربعة أعوام.. ورجع إلى واستقرت بنا الحياة في مصر.. وتقدم زوجي في عمله، وتحسنت أحوالنا المادية كثيرا.. وانتقلنا من الشقة العادية التي بدأنا حياتنا فيها إلى شقة جميلة بضاحية أجمل وواصل الابنان تعليمهما حتى بلغا المرحلة الثانوية.. وطوال هذه

السنوات لم تحدث بيني وبين زوجي خلافات كبيرة.. ولم تشهد حياتنا سوى بعض الاحتكاكات البسيطة بحكم طبيعة الحياة المشتركة ومطالب الأبناء ومتاعب تربيتهم.. وفي كل الأحوال، فلقد حرصت دائما على ألا تخرج خلافاتنا عن دائرة الاحترام المتبادل بيني وبين زوجي، كما كنت غالبا من يبدأ بالاقتراب منه ومصالحته لأنني لا أطيق خصامه ولا جفاءه لي. وفي المقابل فقد شهدت حياتنا مناسبات سعيدة كثيرة مثل نجاح الأبناء في الشهادات العامة.. وترقية زوجي إلى مركز أكبر، واحتفالات عيد زواجنا التي بلغت ذروتها قبل عامين في ذكرى مرور عشرين سنة على الزواج، حيث غمرني زوجي بالهدايا وبالكلمات الجميلة التي هي أثمن من الهدايا أمام أولادي وأثنى عليّ كثيرا، وقال لابنتي إنه يريد منها أن تكون مثل أمها في كل شيء ودعا لابنه بأن تهبه الحياة زوجة مثلي تحفظ زوجها وبيتها وأبناءها، فبكيت من الفرح والسعادة.. ودعوت الله أن يحفظ لي زوجي وأسرتي وسعادتي.

وكنت حين احتلفت بعيد زواجي العشرين في إجازة بدون مرتب من عملي لأتفرغ للعناية بابني وهو يستعد لامتحان الثانوية العامة.. وكلل الله جهودي وجهود ابني بالنجاح ودخوله نفس الكلية التي سبقته إليها أخته.. وسعدنا بذلك كل السعادة، واحتلفنا بنجاحه احتفالا بهيجا.. لم يمض على بداية عامه الجامعي الأول سوى عدة أسابيع، حتى تكدرت حياتي بملاحظتي على زوجي ابتعاده عني.. وانطواءه على نفسه وعدم استجابته لأي محاولة من جانبي للاقتراب منه أو معرفة أسباب انشغال فكره، وتصورت أن زوجي ربما يكون يعاني أزمة منتصف العمر التي يمر بها بعض الرجال وخاصة أنه قد تجاوز الخمسين بعام، وبدأ يشعر بانسحاب الشباب وظهور الشعر الأبيض بكثرة في رأسه، وحاولت إشعاره بأن هذا الشعر الأبيض قد زاده وسامة وجمالا في نظري، وهي حقيقة لكنه لم يستجب لأية محاولة.. وأمعن في البعد والصمت والانطواء.. وكثرت أسفار العمل منفردا دون أن يدعوني لمصاحبته كما كان يفعل من قبل إلى أن فوجئت به ذات يوم يقول لي في هدوء قاتل إنه يريد أن يعترف لي بشيء خطير ويعرف ما أريد بعد سماعه.. أما الشيء الخطير الذي فاجأني به زوجي بعد أكثر من عشرين عاما من الزواج المستقر الناجح الخالي من المشاكل والصراعات فهو أنه غير سعيد معي.. ولا يريد الاستمرار في حياتنا معا.. ويخيرني بين أن يهجر البيت دون طلاق ويقيم وحيدا في الشقة التي كان قد اشتراها لتكون لابنه في المستقبل، على أن يبدأ في شراء أخرى له بالتقسيط.. وبين أن يطلقني في هدوء ويعطيني كل حقوقي الشرعية، وأظل في بيتي وبين أولادي إلى نهاية العمر ونظل صديقين على البعد يحترم كل منا الآخر ويتعاون معه في رعاية الأبناء، وإذا بدا لي أن أتزوج غيره في أية مرحلة من العمر، فلن يغير ذلك من طبيعة العلاقة بيننا، بل إنه يرحب إذا اقتضت الضرورة بزواجي في نفس مسكن الزوجية وبين ولدي بشرط أن أحسن الاختيار!

ولن أروي لك ما حدث لي حين سمعت ذلك ولن أطيل في التفاصيل المحزنة التي تلت هذه «المناقشة الهادئة» كما يسميها وإنما سأقول لك فقط إنه قد خيل إلى أني

أشاهد فيلما من أفلام السينما يجرى أمامي، ولم أكن لأصدق وقائعه لولا أنني كنت طرفا حيا فيه.

فلقد فشلت كل المحاولات والدموع والبكاء والاستجداء والتوسل من جانبي ومن جانب ابني وابنتي مع زوجي في تغيير موقفه، وفشلت كل الوساطات العائلية في إرجاعه عن فكره وهجر البيت في يوم حزين وانتقل لشقته الجديدة التي أثثها على عجل، واستفزتني كرامتي بعد أن أعيتني معه الحيل فقلت له إنني أفضل الطلاق وكأنما كان ينتظر مني هذه الإشارة، فأسرع بطلاقي وأرسل لي مع شقيقه الأكبر مؤخر الصداق ونفقة المتعة ونفقة العدة وتعويضا ماليا زائدا، وأكد لي أنه سوف يستمر في إرساله المبلغ الشهري الذي كان يدفعه لي كمصروف للبيت إلى ما لا نهاية، وقدم لي شقيق زوجي مظروفا بهذه المبالغ وعيناه تدمعان أسفا وحزنا على انهيار هذه الأسرة التي طالما ضرب بها المثل في الوفاق والاستقرار.

وقلت لشقيق زوجي: ماذا تساوى النقود وقد فقدت أماني وسعادتي واستقرار ابني وابتهاجهما بالحياة؟ وأحنى الرجل رأسه ليخفي دمعته وودعني وهو يدعو لي بالصبر وتعاطفت معي شقيقات زوجي وأزواجهن وأنكروا جميعا تصرفه وغاضبوه وحرصوا على زيارتي والسؤال عني كل يوم ودعوتي إلى بيوتهم، وقبل أن أفيق من ذهولي، فوجئت بالحوادث تتوالى سريعة بلا رحمة، واكتشفت سر هذا الانقلاب الخطير في شخصية زوجي، حين فوجئت به يتزوج من سيدة طلقت من زوجها قبل شهور قليلة ولها ثلاثة أبناء أصغرهم في السابعة عشرة من عمره! وعرفت أن زوجي كان يحب هذه السيدة، وهي فتاة في سن التاسعة عشرة وظل يحبها خمس سنوات، وفشل في الزواج منها لأسباب مادية، وتزوجت من كان قادرا وقتها على تكاليف الزواج وإعداد شقة في حي المهندسين ولديه سيارة ومال كثير، وأنجبت منه وعاشت معه 24 عاما، إلى أن التقت بزوجي خلال العمل بالمصادفة.. وشكت له من تعاستها روجية وندمها على إضاعته من يديها، فتجدد الحنين واستيقظت المشاعر النائمة كما يقول.. وظلا على علاقة عاطفية بالتليفون واللقاءات الخاطفة في العمل لمدة شهور، واتفقا على استكمال القصة القديمة التي لم تتم.. وطلبت هي الطلاق من زوجها، وأحالت حياته إلى جحيم إلى أن رضخ بعد عناد كبير وتركت أبناءها الثلاثة وانتظرت أن يطلق زوجي زوجته ويتوج قصتهما بالزواج، فلم يخب رجاءها! وتزوجا وانتقلا إلى عش الحب الذي راح ضحيته رجل وامرأة وخمسة من الأبناء الحيارى.. وهما الآن سعيدان بحياتهما راضيان عنها ولا يؤرقهما لحظة واحدة عذاب الضمير بما فعلا بشركاء الحياة والأبناء وكل منهما يقول إنه قد أدى رسالته مع أبنائه، ومن حقه أن يسعد بما بقي له من العمر إلى جوار من يحب، فإذا قيل لزوجي إن ابنيه مازالا في مرحلة الدراسة الجامعية يقول إنهما قد اجتازا المرحلة الصعبة وهي الثانوية العامة. وسوف يتخرجان ذات يوم ولن يتخلى عنهما!

وإذا قيل له إن زوجته تحبه ولم تسيء إليه ولم تكن حياته معها تعيسة، أجاب - سامحه الله - بأن حياته معي كانت هادئة لكنها لم تكن سعيدة لأنه لم تكن بيننا

سوى العشرة والاحترام وهي شبيهة بالماء الفاتر الذي لا يروي العطشان.. أما حياته الحالية، فهي مشحونة بالعواطف الحارة! فأي منطق هذا يا سيدي؟

وما ذنبي أنا في قصة الحب القديمة التي لم تكتمل أو في تخلى بطلتها عنه بسبب الإمكانات المادية وندمها فيما بعد على إضاعته من يديها.. وإذا لم يظهر هذا الندم وهو يتعثر في بداية حياته العملية وتفجر فجأة بغير مقدمات بعد أن أصبح زوجي رجلا مرموقا في مجاله ولديه إمكانات مادية جيدة وسيارة فاخرة وشقة إضافية ودخله كبير وحتى لو صدقت هذه المشاعر.. فما ذنبي أنا في ذلك ولماذا يحترق قلبي وأنا أقترب من الخمسين بغدر شريك الحياة والحرمان من السعادة والاستقرار؟. لقد قال لي زوجي خلال مناقشتنا الهادئة تلك وفي برود قاتل إنني أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد مع غيره.. فسامحه الله على ما لا يفهمه.. إذ كيف يمكن أن أحب رجلا آخر بعد ٢٣ عاما من الحب الخالص لإنسان وهبته كل مشاعري وحياتي؟.. وكيف أستطيع أن أدخل على ابنتي الشابة وابني الشاب رجلا آخر غير أبيهما يختلي بي في غرفة النوم وهما في الجوار يرقبان ويفهمان ويتألمان وما هذا «الحب» اللعين يا سيدي الذي يبرر به زوجي كل هذه القسوة على من لم تكن ترى الدنيا إلا من زاويته وعلى الأبناء الذين كانوا يرون فيه مثلهم الأعلى؟

لقد مررت بفترة عصيبة انهرت فيها صحيا ونفسيا.. وبدأت أفكر في الرجوع للعمل وقطع إجازتي لعلي أجد ما يشغلني عن التفكير المستمر لمدة ٢٤ ساعة.. في طعنة زوجي ووالد ابنيّ لي وأنا في هذه المرحلة من العمر.. فبماذا تنصحني يا سيدى وماذا تقول لي وله؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض الناس يقيسون فيما يبدو عمق «سعادتهم» بحجم اتساع دائرة ضحايا هذه السعادة من الأبرياء الذين داسوا على أشلائهم للوصول إليها. وبهذا المقياس الفاسد، فإنه يحق لزوجك السابق وشريكته في هذه «السعادة» أن يفخرا بعدد الضحايا الذين سقطوا على جانبي الطريق خلال سعيهم لنيلها. أما أصحاب القلوب الحكيمة من البشر، فهم لا تصفو لهم السعادة إذا شقي باختيارهم لها أعزاؤهم حتى لو شكوا بالفعل من بعض جوانب النقص في حياتهم.

والحياة قد تحول أحيانا بين الإنسان وبين بعض ما يرجوه لنفسه وتجود عليه في نفس الوقت بما يكفي لأن يعوضه عما يفتقده في حياته أو يراه من وجوه النقص فيها ولقد تتاح له فيما بعد الفرصة لتصحيح ما يعتبره من أخطاء الحياة في حقه، فيتوقف أمام هذا الاختيار ويوازن بين ما سوف يجنيه من عوائد هذا التصحيح المتأخر وبين ما سوف يتكبده أعزاؤه من ثمن فادح له وما سيدفعه هو نفسه من اعتباره لدى الأبناء والأهل والمجتمع المحيط به، فيفضل إذا كان ممن لا يسعدون بشقاء الأعزاء والآخرين ألا يعدل بحسن اختيار الله له شيئا، ويتجاوز عما لا

يرضيه من حياته إلى ما يرضيه منها، فيشكر ربه عليه ويسلم بأنه «وأمر من بعض الداء الدواء» كما قال أمير الشعراء، فيعزف عن خيار التصحيح إذا كانت أضراره الإنسانية والعائلية والاجتماعية أكبر بكثير من أضرار استمرار الحال على ما هو عليه والرضا به. وكذلك يفعل الفضلاء ومن يستشعرون مسؤوليتهم العائلية عمن يعتمدون عليهم في حياتهم.. ومسؤوليتهم الإنسانية عن إعلاء المثل العليا في الحياة، أما اختيار «أنا وبعدي الطوفان» فهو اختيار ذوي الأثرة والأنانية والإحساس المتضخم بالذات على حساب الغير وهؤلاء لا يجدي معهم الحديث الآن على الأقل وهم في ذروة النشوة الموهومة «بانتصار الحب» على الأعراف والتقاليد والقيم العائلية والاجتماعية وكافة القيود والأغلال الاجتماعية وإنما قد يجدي الحديث إليهم بعد حين، عندما يخمد الفوران العاطفي الذي يذكية الآن الإحساس بالتحدي للصعاب والعقبات العائلية والاجتماعية.. وعندها قد يكتشف أطراف مثل هذا الاختيار أن ما خسروه من خسائر إنسانية وعائلية واجتماعية خلال سعيهم لنيل سعادتهم الخاصة بغير اعتبار سوى لمشاعرهم ورغباتهم وحدها قد يكون أكبر بكثير من حجم ما نعموا به بالفعل من سعادة.. حقيقية كانت أم زائفة، فصبرا يا سيدتي، فإن خداع الأبصار لا يدوم إلى الأبد ولابد من يوم يراجع فيه كل إنسان كتابه مع الحياة ويؤرقه ضميره بما جنى على الآخرين بغير ذنب ارتكبوه سوى أن أقدارهم قد وضعتهم على غير إرادة منهم في طريق سعيه لسعادته.. وقد يتدارك ما يستطيع تداركه من أخطائه وعثراته قبل أن يفوت أوان الإصلاح والاعتذار. ولقد شعرت بعمق فجيعتك فيمن أخلصت له الحب طوال الرحلة، فلم يبادلك للأسف بعض هذا الحب، وضحى بك عند أول مفترق للطرق كأنما قد كانت حياتك معه ومشاعرك تجاهه ضياعا من الضياع. ولقد ذكرني موقفك الحسير وشقيقه الأكبر يقدم إليك «فدية» الغدر والخيانة بموقف إحدى زوجات الإمام الحسن بن علي حين ولى الخلافة بعد مقتل أبيه وأخطأت الزوجة، فهنأته بها قائلة : لتَهنَك الخلافة يا أمير المؤمنين، فقال لها : أيقتل علي وتظهرين الشماتة؟.. أذهبي فأنتي طالق ثلاثة. وبقيت في بيته حتى انتهت عدتها وبعث إليها بعشرة آلاف درهم كمتعة ومؤخر صداق، فقالت المرأة لمن حمل إليها المال وهي باكية:

متاع قليل من حبيب مفارق!

وصدقت فيما قالت، فكل شيء في الحياة حقا «متاع قليل» إذا افتقد الإنسان راحة القلب وسكونه إلى جوار من يحب.

لكن ماذا نقول نحن فيمن لا يرون أنفسهم ورغباتهم ومطالبهم من الحياة ولا يعنيهم في كثير أو قليل ما قد يقدمونه من قرابين بشرية على هيكل الفوز ببلوغ غاياتهم؟

قد نقول ما قاله أحد الحكماء في موقف مشابه : لقد أحببت الإخلاص وكرهت الغدر وآمنت بالخير والحق والعدل والجمال، والمثل العليا. وكان ذلك لنفسي قبل أن يكون لغيري.. فإن كافأني الغير على ما حملت لهم من مشاعر طيبة بالوفاء لي فبها ونعمت، وإن جحد البعض عطائي ومشاعري وإخلاصي، فلقد استمتعت

بممارسة إحساس العطاء والحب والوفاء والنبل.. ولى ما أحسست به.. وعليهم عاقبة ما تنكروا له من عطائي السابق لهم، وفي ذلك بعض العزاء!

نعم يا سيدتي في ذلك بعض العزاء.. فتماسكي دفاعا عن نفسك وصحتك ودفعا للهم والحزن والمرض، واستجمعي قواك لكي تواصلي رحلة الحب والعطاء لأبنائك وتستكملي معهم رسالتك وتستمتعي بجني ثمار عطائك النبيل لهم..

ولا بأس بفكرة العودة للعمل لكي يشغَل بعض أوقاتك ويخرجك من دائرة الانحصار داخل مأساتك الشخصية.. إلى العالم الأوسع بآفاقه واهتماماته وشواغله فالفراغ من كل عمل يشغل الإنسان عن همومه هو أعدى أعداء المهموم بأمره.. وأنشط أعوان المرض عليه.

فارجعي إلى عملك ولو بصفة مؤقتة وثقي في نفسك وجدارتك بكل خير وجميل في الحياة، وتأكدي دائما من أنه «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ».

صدق الله العظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللوحة المثالية

ترددت طويلا قبل أن أكتب إليك رسالتي هذه، فأنا سيدة أشغل مركزا قياديا مرموقا، وقد نشأت في أسرة ريفية طيبة وكان أبي رجلا طيبا مخلصا لأسرته وبيته كل الإخلاص، وأمي أما رائعة مثالية وأخي وأختي لا نعرف كلنا الحب والترابط والتعاطف، وحين وصلت إلى السنة النهائية في كليتي تقدم إلي شاب جامعي للزواج مني ورحب به والدي وشاركته والدتي الترحيب رحمهما الله، وكان أول رجل يدخل حياتي، فتملكني حبه وشعرت بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علي به، وتزوجنا وعشت معه أسعد أيام الحياة ومضت بنا الأيام على خير ما يرام ورزقنا بولدين وبنت، ورفرف الحب والوئام على حياتنا حتى استحققنا أن نكون بالفعل الأسرة المثالية، فعلاقتي بزوجي لا توصف من حيث الحب والإخلاص والصراحة المتبادلة بيننا والمشاركة الكاملة بيني وبينه في كل شيء.. لا مال لي ولا ماله له، وإنما كل ما يملك زوجي هو لنا معا وكل ما أملكه كذلك، حتى حسابي بالبنك معه توكيل مني بالتصرف فيه، كما أن معي توكيلا منه بالتصرف فيما يملك، والأبناء رائعون ومتفوقون ومهذبون وقد تقدموا في الدراسة حتى بلغوا كلياتهم المرموقة وتخرجوا فيها، وسعدنا بمناسبات نجاحهم وتخرجهم، وتعاونت مع زوجي في افتتاح مكاتب ومشروعات مهنية صغيرة لهم..

واكتملت اللوحة العائلية المثالية بارتباط أبنائنا الثلاثة بزوجات وأزواج من أسر عريقة طيبة.. ولم تشهد حياتنا في هذا الأمر أي خروج على اللوحة الرائعة، فلم يرتبط ابن لي بمن هي دونه اجتماعيا وعائليا، ونشبت بسبب ذلك مشكلة عائلية في أسرتنا ولا ارتبطت ابنة لي بزوج لا يستحقها وحاربتنا لكي تتزوجه رغما عنا - كما نقرأ أحيانا في بريد الجمعة - وإنما مضى كل شيء في سلام ووئام.. وانتقل الأبناء إلى أعشاشهم الصغيرة وعرفنا متعة عائلية جديدة حين نزورهم في بيوتهم أو يزوروننا في بيتنا.. ولم يلبث الأحفاد أن جاءوا ليزيدوا حياتنا ضياء وبهجة حتى خشيت على حياتي من الحسد، ودعوت الله دائما أن يحفظ علينا سعادتنا وسلامنا العائلي.

ثم اقترب زوجي من سن المعاش وبدت عليه علامات انشغال الخاطر والتفكير، وأحسست بما يدور في نفسه وهو يقترب من سن التقاعد من العمل، وأنا ما زلت أعمل، واخرج إلى عملي كل يوم، وفكرت في الأمر طويلا ثم عرضت عليه أن أنهي حياتي العملية وأخرج للمعاش المبكر، لكي أشاركه أوقات فراغه وخاصة أنه لم يكن يفصل بيني وبين سن الستين سوى خمس سنوات، وقلت له إن حياتنا قد اكتملت، وأننا أدينا رسالتنا مع أبنائنا على خير وجه.. فلماذا لا أستقيل وأتفرغ له ونستمتع معا بحياتنا وأوقات الفراغ الطويلة.. وباستقبال أحفادنا الصغار لحين عودة أمهاتهم الشابات من العمل، ولكنه فضل لي الاستمرار في عملي حتى أصل إلى سن المعاش الطبيعية، واستجبت لرغبته، وبلغ زوجي سن المعاش، واحتفلنا

بتحرره من أسر الوظيفة، وسافرنا معا للأراضي الحجازية لأداء العمرة، وشكرنا الله سبحانه وتعالى كثيرا أن خرج زوجي إلى المعاش وهو بكامل صحته.

وبدأ زوجي بعد المعاش يجلس وحيدا في البيت في الصباح وأخرج أنا للعمل، وعرف التدخين بانتظام لأول مرة في حياته وعاتبته في ذلك خوفا على صحته، فأجابني بأنها مجرد تسلية لشغل الفراغ وتعمدت أن أكثر من الخروج معه عقب عودتي من العمل بالرغم من إرهاقي وتعبي، وأكثرنا من زيارة أبنائنا في بيوتهم لكيلا يشعر بالملل والضيق بالفراغ.

ومنذ بضعة شهور نسسيت في البيت عقب خروجي منه تقريرا كتبته عن شأن من شؤون العمل، واكتشفت ذلك عند وصولي لمكتبي، فاستدعيت عاملة من العاملات معي وأرسلتها للبيت لإحضاره، وبعد ذلك لاحظت أكثر من مرة اختفاء أشياء صغيرة من حقيبة يدي بعد وصولي للعمل كمفاتيح المكتب وغيرها، فكنت أرسل هذه العاملة لإحضاره من البيت لأنها تعرف طريقه.

وذات يوم شعرت بإجهاد شديد وأنا في العمل وتعرضت لنوبة من الإغماء، وانزعج زملائي وتعاونوا على إعادتي للبيت بسيارة أحدهم، ونزلت أمام سكني وصعدت إليه وفتحت الباب ودخلت حجرتي، فإذا بي أجد زوجي الرجل المثالي المحترم جد الأحفاد الصغار يجلس في الغرفة وتلك العاملة التي سبق أن أرسلتها إلى البيت عدة مرات، تتحرك في المكان على راحتها وهي ترتدي الملابس المنزلية التي تخصني.. ولست أدري ماذا فعلت أو قلت أو قال زوجي.. لكني أذكر فقط أنني سمعت تلك الحقيرة تقول لي في ثبات إن البيه زوجها هي الأخرى، كما هو زوجي حضرتي أنا الست المديرة!

واستردت وعيي بعد ذلك، فوجدتني ممددة في فراشي وحولي ابني ومعه طبيب من معارفه، ولم أنطق بشيء ولم أقل شيئا.. إلا أنني فقط انفعلت وهجت مرة أخرى حين دخل على زوجي وأغمي علي مرة ثانية، وسأضرب صفحا عن ذكر التفاصيل التي تلت هذه الفاجعة.. وسأقول لك إنني حصلت على إجازة من عملي لمدة شهر قضيت بعضه في بيت ابنتي التي حاولت معي طويلا أن تعرف سر ما حدث لي، فلم أبح لها به ورجعت إلى بيتي بعد هذه الفترة وطلبت من زوجي تفسيرا لما فعل، فلم يجد ما يقوله لي سوى أنه «أمر الله»، وأنه لم ولن يكون في يوم من الأيام عاصيا لربه، فطلبت منه أن يطلقها ويعطيها كل ما نملك مقابل طي هذه الصفحة قبل أن يعرف بها الأبناء، وتهتز لديهم صورة الأب المثالي والجد الحنون لأطفالهم، فرفض هذا الحل. أما «الهانم» التي ارتبط بها زوجي وعرضني من أجلها لهذه المحنة في هذه المرحلة من عمري، فقد علمت من العمل أنها استقالت واختفت منه.

إنني أخشى على أولادي وأحفادي حين يعلمون بهذه القصة الشائنة عن أبيهم وجدهم، ولا أدري كيف أواجه ما تبقى من حياتي بعدها.. وزوجي ما زال مصرا على موقفه بالرغم من كل ما حدث، فماذا أفعل يا سيدى حرصا على سمعة أولادي

وأوضاعهم العائلية في أسر أصهارهم.. وهل يكون انتحاري هو الحل الملائم لمثل هذه الكارثة علما بأن خوفي من ربي هو وحده الذي يمنعني الآن من الإقدام عليه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الانتحار ليس حلا لأية مشكلة من مشاكل الحياة، وإنما هو هروب منها وعجز عن مواجهتها والصمود أمامها.. فضلا عن أنه عمل يائس يخرج بصاحبه من حظيرة الإيمان بربه إلى اليأس من روح الله ومن كل شيء في الحياة.

والواضح يا سيدتي من سياق قصتك الغريبة هذه أن زوجك قد تأثر تأثرة سلبية بعدة عوامل تحالفت كلها ضده، وأدت به في النهاية للوقوع في هذه المحنة العائلية والاجتماعية، أولها هو أنه لم يتفاعل على الوجه الصحيح مع مشكلة الفراغ التي واجهها بعد الإحالة للمعاش، ولم يحسن التعامل مع أزمة انتهاء الدور، والاعتقاد الخاطىء لدى البعض بتراجع أهميتهم في الحياة، وعلى المستوى العائلي لمجرد انتهاء مرحلة العمل في حياتهم وبدء مرحلة تذوق الحياة على مهل واكتشاف جمال الأشياء والعلاقات الإنسانية التي لم يكن إيقاع الحياة اللاهث يسمح له من قبل بتوجيه قدر كاف لاكتشافها والتمتع بها.

وأما ثاني هذه العوامل، فهو أنه فيما أتصور كان يشكو بعض النقص في الإشباع الحسي والعاطفي في علاقته بك بالرغم من مثالية الصورة العائلية واكتمال معالمها، ذلك أن اكتمال الصورة، وبالرغم من أنه في حد ذاته قيمة كبرى ونعمة جليلة من نعم الحياة، إلا أنه لا يغني الزوج أو الزوجة عما يستشعره أحدهما من نقص الإشباع العاطفي والحسي في علاقته بشريك الحياة، حتى لو عوضه عنه الكثير والكثير مما حققه في حياته، وأما ثالث العوام وأخطرها.. فهو توافر عامل «الإغراء» الذي أتاح لزوجك أن يحيل ما يراوده من أفكار وتمنيات ساعد وقت الفراغ الطويل على استسلامه لها والمغالاة في تقدير أهميتها، إلى واقع عملي، فبعض الأشخاص قد تراودهم مثل هذه الأحلام الوردية لإشباع ما يشعرون بنقصه في حياتهم، فلا يردهم عن ذلك الإخلاص لشريك الحياة أو مراعاة الاعتبارات العائلية والاجتماعية التي تكبل حركتهم وإنما يردهم عن ذلك أنهم حين استسلموا لضعفهم لم يصادفوا في التوقيت الملائم من يمكن أن يحيلوا معه خواطرهم وأمنياتهم الحبيسة إلى واقع عملي، ذلك أنه كما يحتاج الأمر إلى شخصين لكي تقع مشاجرة على حد تعبير المثل الإنجليزي القديم، فإنه يحتاج إلى شخصين أيضا لكي تبدأ علاقة ارتباط أو زواج. ومن سوء الحظ أن زوجك قد صادف، وهو في مرحلة الضعف المعنوي والتأثر بوهم انتهاء الدور، وازدياد الرغبة الحسية لديه بتأثير الفراغ من هموم العمل والحياة، هذه القرصانة المستعدة للتلبية والانخراط في مغامرة «مشروعة» تكفل لها الارتقاء الاجتماعي وتلبية الرغبات الحسية والمعنوية والمادية لديها في نفس الوقت، ولو لم تضعها الأقدار في طريقه في هذا التوقيت الشائك بالذات، لربما كان قد تجاوز مرحلة الضعف النفسي هذه

بسلام، وتواءم مع المتغيرات الجديدة في حياته وتوصل إلى الصيغة الملائمة معك لإشباع ما يشكوه من نقص.

إنها حالة أخرى من حالات ذهول القلب والعقل والتغاضي عن كل الاعتبارات العائلية والاجتماعية أمام النزوة الطارئة أو إلحاح الغريزة أو العاطفة العابرة، وهذا الذهول قد يمتحن به أي إنسان في أي مرحلة من العمر، فيضعف أمامه البعض ويعرض النفس والأسرة لمتاعب عائلية ما كان أغناه عنها ويصمد له من الأزواج والزوجات من رحم ربك واعتصم بدينه وخلقه وإحساسه السليم بمسؤولياته العائلية والإنسانية.

ولقد كان الأحرى بزوجك أن يعتصم، بكل ذلك ويسعى لحل مشكلة علاقته بك، إذا كان يشكو نقصا فيها بدلا من أن يعرض نفسه وزوجته وأبناءه لهذه المحنة الطارئة التي تخدش جلال صورته في أعين أبنائه وزوجاتهم وأزواجهم وأصهاره.

ولقد روى كاتب قصة «سراب الحب» الأمريكية موقفا مشابها لرجل ناجح وقور وزوج مخلص لزوجته وسعيد معها، كان دائما ضد نزوات الأزواج ويستعيذ بربه منها، ويردد دائما من العهد القديم الآية الكريمة التي تقول: «وسيبلونك الله بالجنون والعمي وذهول القلب » مستعيذا بربه من مثل هذا الابتلاء، إلى أن جاء يوم ووضعت الأقدار في طريقه امرأة لعوبة ساحرة انهارت حصونه أمامها من الوهلة الأولى ووقع في هواها.. ونسي التزامه وإخلاصه لزوجته، وانساق وراء أهواء نفسه معها واعترف لشريكة حياته بأنه «مريض» ولا يملك دفعة لهذا المرض المفاجيء، وصبرت عليه زوجته عسى أن يشفى من «مرضه» ويسترد اتزانه، غير أنه لم يغفر لنفسه بعد أن أفاق من نزواته ما فعل بزوجته ونفسه وصورته المثالية في أذهان المحيطين به، ولم يجد تكفيرة لذلك سوى الانتحار من فوق سطح العمارة التي يقيم بها.

ولسنا نطالب زوجك بمثل هذا «التكفير» المرفوض عما فعل بنفسه وزوجته وصورته الجليلة كزوج وأب وجد، وإنما نطالبه فقط بأن يسترد نفسه من حالة ذهول القلب والعقل هذه التي استولت عليه فجأة وهو في سن الهدوء والاحترام، وبأن يتوصل معك إلى صيغة ملائمة لحل كل مشاكله، وتلبية كل احتياجاته العاطفية والنفسية حتى لو تطلب الأمر تفرغك الكامل له واستقالتك من عملك، وبأن يسرع باسترداد صورته المثالية في أعين الأبناء والأحفاد والأصهار وشريكة الحياة، قبل أن يفلت الزمام من يديه وتأتيه القرصانة الأخرى بوليد صغير يزيد الأمور تعقيدة، أو يتسرب خبر المحنة إلى الأبناء والأصهار، ويصبح عسيراً إصلاح ما أفسده الاندفاع والتهور والاستسلام لأهواء النفس بغير خسائر معنوية واجتماعية جسيمة، فهل يستجيب لنداء العقل قبل فوات الأوان؟!

وهل تستمرين أنت في إبقاء الأمر داخل الدائرة الضيقة بينكما، إلى أن يسترد زوجك نفسه ويتحرر من أسر هذه القرصانة بأقل الخسائر الممكنة، كما تحرر من قبل من أسر الوظيفة وأعبائها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلاح الصمت!

أنا رجل أعمال وزوجتي جامعية وربة بيت حاليا ولدي أبناء وقد كتبت إليك لأنني حائر وأشعر لأول مرة في حياتي بالعجز أمام مشكلة جوهرية من مشاكل الحياة.. فمنذ عشرين عاما كنت أنا وزوجتي قد أنجبنا طفلين، ونغالب، ظروفنا المادية الصعبة وكانت زوجتي حاملا في طفلنا الثالث وتستعد للولادة، فشاءت الأقدار أن أوفق في هذه الفترة بالذات في الحصول على فرصة عمل بالخارج، وزاد من ابتهاجي بها وجود فرصة عمل أخرى ممتازة لزوجتي في المؤسسة نفسها. ووضعت زوجتى مولودنا الثالث.. وتحدد موعد السفر بعد 17 يوما فقط من الولادة، فاضطررنا لترك المولود الحديث في رعاية جدته لأمه خوفا عليه من عدم استقرار أحوالنا في بداية الغربة، واصطحبنا طفلينا الآخرين وكانا في عمري 4و6 سنوات وبدأنا تجربة الاغتراب واستغرقت في عملي الجديد، وكذلك زوجتي.. وفي نهاية عامنا الأول في الغربة عدنا في إجازة لمدة شهر، وحاولنا تعويض الطفل الوليد عن غيابنا عنه بالهدايا الغالية، وواضبنا على ذلك كل عام، إلا أننا لاحظنا أنه لا ينسجم معنا على الإطلاق، وأنه لا يتعلق سوى بجدته والألعاب التي نحضرها له فقط، واستمر الحال على هذا النحو ست سنوات ازدادت خلالها الفجوة بيننا وبين هذا الابن الأصغر، فقررنا أن نصطحبه معنا إلى مقر عملنا لكيلا ينسى أبويه، ولكي يقترب من أخويه.. ونفذنا هذا القرار بالفعل واصطحبناه معنا على كره منه، ولاحظنا خلال الفترة الأولى من حياته المشتركة معنا في الغربة هروبه من الجلوس إلينا أو الحديث معنا.. فسرنا ذلك في البداية بأسباب تتعلق باختلاف الحياة العائلية التي اعتاد عليها.. لكننا لاحظنا أيضا أنه لا يجالس أخويه ولا يشترك معهما فيما يشترك فيه الأبناء من لهو أو مسامرة أو نشاط.. وأرجعت ذلك أيضا لاختلاف طبيعته عنهما حيث إنه شديد الحساسية على خلاف أخويه ولأمر ما اعتقدنا أنا وزوجتي أن أفضل أسلوب نتبعه معه هو الحسم، إيمانا بأنه سوف يجعل منه شخصية قوية، فاتبعنا ذلك الأسلوب ولم نحد عنه، ومضت السنون والابن الأصغر يزداد عزلة وكآبة وهزالاً لانعدام شهيته للطعام. كما لاحظت أيضا أن أمه تكثر من إهانته وإحراجه لأتفه الأسباب، فكنت لا أتدخل لمنعها من ذلك ظنا مني أن في ذلك ما يحقق مصلحته.. وساعدني على هذا الظن أنه ظل دائما الابن المهذب شديد الحياء والذكي المتفوق دراسيا، الذي لا يهتم بالمال نهائيا.

وبلغ ابني عامه السابع عشر وهو يزداد عزلة وكآبة. وفي هذه المرحلة انتهى عملنا في الغربة، فرجعنا إلى بلدنا ومعنا من المال ما لم نكن نحلم بجمع نصفه، وأقمنا في مدينة كبرى من مدن بلادنا، والتحق الابن الأصغر بكلية مرموقة على غير إرادته، حيث كان حلم حياته أن يدرس الهندسة لحبه للرياضيات والعلوم

الالكترونية، لكنه وبضغط شديد من والدته قبل الالتحاق بتلك الكلية المرموقة بالرغم من كراهيته الشديدة للدراسة فيها. وكانت النتيجة أن رسب في عامه الأول بها، وهو الطالب المتفوق في كل مراحله الدراسية السابقة، وكان رسوبه

قاسيا عليه لكن أمه لم تترفق به على الرغم من ذلك، وأذاقته كل ألوان التجريح والإهانة، وكعادته بعد كل مواجهة بينه وبينها، فقد دخل غرفته واستسلم للبكاء يومين كاملين امتنع خلالهما عن تناول الطعام وقمنا بعلاجه من الضعف العام الذي صابه.. وبعد شفائه منه اتبع معنا أسلوب الصمت التام إلا للضرورة القصوى، فلا حديث معي أو مع والدته أو أخويه إلا للضرورة التي لا مفر منها ولا مسامرة بيننا وبينه.. ولا شيء سوى إجابات مقتضبة على أسئلتنا له. وواصل بعد ذلك تعليمه تحت ضغط أمه وهي المسؤولة عن متابعة تعليم الأبناء، ومضى العام تلو العام، وهو ينجح بالكاد في نهاية كل عام دراسي وفي كل مرة تظهر فيها نتيجته تقوم أمه بإهانته وإحراجه، إلى أن جاءت السنة النهائية هذا العام وظهرت نتيجة الفصل الدراسي الأول منها قبل أسابيع وكانت كالعادة سيئة، فبدأت والدته في سيل الإهانات والتجريح الموجه له.. فإذا بالابن الصامت المنكسر ينفجر لأول مرة وهو الذي لا يعلو صوته على أحد حتى مع صفعات والدته له وإذا به يصيح في وجه أمه بصوت كالرعد : كفاكم ظلما، ثم يشق قميصه من شدة انفعاله ويدخل حجرته ويغلقها عليه.

وفي الصباح.. دخلنا حجرته، فلم نجده فيها ووجدنا بدلا منه رسالة يعاتبنا فيها عتابا مؤلما ويقول لنا فيها إنه يحبنا كثيرا لكنه لا يعرف كيف يثبت لنا هذا الحب.. وإنه لا يريد منا مالا، فلقد كرهه كما كره كل شيء في الحياة.. ويطلب مني ألا أبحث عنه.. ومن أمه ألا تدعو عليه بسوء ء لأنه ابنها مهما يكن من أمره.

ونزلت عليّ كلمات هذه الرسالة المريرة كالصاعقة.. وصهرت مشاعري الأبوية التي تجمدت منذ سنين طويلة.. وشعرت وكأن سيخا من الحديد المحمي بالنار يدخل في أحشائي.. ولم يهدأ لي بال حتى عرفت أنه يقيم وحيدا في بيت جدته لأمه في بلدتنا الأصلية.. وقررت أن أدعه لنفسه بعض الوقت إلى أن تهدأ أعصابه ، ويعود إلينا، ورحت أقلب في كتبه وأوراقه التي تركها وراءه، فوجدته قد كتب فيها كلمات ممرورة يقول فيها إنه يحس بأنه شخص غير مرغوب فيه ويتساءل : لماذا لا يهتم به أبوه ويقربه منه؟ ولماذا حين تقطر عينه الدمع دما لا يجد من يخفف عنه أو يشعر به؟.. ولماذا يتم كل شيء في بيتنا بالشدة والشجار والصخب.. ثم يقول : كل كلام أبي وأمي مطاع طاعة عمياء حتى ولو لم يفهما ظروفي!

ويختتم تساؤلاته هذه بعبارة كادت تصيبني بالشلل حين أنه يشك جديا في أنه لقيط وليس ابنا طبيعيا لي ولأمه وذلك على ضوء ما يحس به ويستشعره، ويطالبنا باعتباره ميتا، مؤكدا لنا أن ذلك لن يكون صعبا علينا، ونحن اللذين تركناه من قبل في فترة كان فيها أضعف كثيرا منها الآن.

إنني يا سيدي في ذهول مما قرأته في أوراق ابني وقد عز على أنه لا يشعر بأبوتي له وأنا الذي على استعداد لأن أفديه بنفسي وعمري، وأنه يلومنا على تركنا له طفلا رضيعا وسفرنا إلى الغربة، بدلا من ترك أمه معه كما قال. وأقول أنا أيضا بدوري إننا ما سافرنا إلى الخارج إلا لكي نحميه من ذل الحاجة والفقر وما تركناه في رعاية جدته إلا لأن سنه كانت صغيرة للغاية ولم تكن أمه تستطيع

رعايته في سنواته الأولى وهي تعمل بالغربة، كما أننا لم نبخل عليه ماديا وقد وعدته بأن يكون له ما قدمته لأخويه كأساس لحياته المستقلة في المستقبل وبمجرد تخرجه.

ولقد كنت أعمل في الغربة ٢٠ ساعة في اليوم من أجله ومن أجل أخويه أفلا يشفع لي ذلك عنده في أن يلتمس لنا العذر فيما كان؟!

إنني لا أتحمل أن أكون أبا ظالم لأبنائه وزوجتي تقول لي إن ابننا هذا يتدلل ولا سبيل للتعامل معه إلا بالاستمرار في التعامل معه بالشدة وأنا حائر بين ذلك وبين عاطفتى تجاهه وخوفي عليه ورغبتي في إشعاره بعاطفتنا تجاهه.. فبماذا تنصحني أن أفعل معه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

افعل معه يا سيدي ما يفعله الأب حين يشعر بخطر ضياع ابنه النهائي منه! اذهب إليه حيث يقيم وحيدة ممرور، واشرح له نفسك ودافع عن مشاعرك الأبوية المتهمة لديه وبرهن له على سلامتها وخلوها من كل شائبة حتى لو كانت تجربتك السابقة معه قد اتسمت بسوء التعبير عن هذه المشاعر، فنحن لا نستطيع إعادة شريط الأيام إلى الوراء لكي نعدل من أحداثه أو اختياراتنا السابقة فيه.. لكننا نستطيع على الأقل أن نعالج بعض آثار هذه الاختيارات ونخفف من عواقبها كما نستطيع أيضا أن نتحلى بالشجاعة النفسية والأدبية ونعترف بخطأ بعض هذه الاختيارات كما أثبتت لنا بعد ذلك تجربة الحياة بل وأن نعتذر عنها لأعزائنا الذين دفعوا ثمنه غاليا من أمانهم وسعادتهم وتكوينهم النفسي.

ولا شك أن اختيارك أنت وزوجتك للاغتراب وترك طفلكما الوليد الذي لم يبلغ من العمر سوى 17 يوما فقط وراءكما واستمرار غيابكما عنه ست سنوات كاملة، كان اختياراً تربوياً وإنسانياً خاطئاً رجحتما فيه المصلحة المادية للأسرة على المصلحة الإنسانية والنفسية والتربوية لهذا الطفل الوليد - فكان اغترابكما المكاني عنه معادلاً لاغترابه النفسي عنكما ولافتقاده للإحساس الطبيعي بحضن الأم ورعاية الأب، ولا يفلح في الاعتذار عن هذا النبذ العاطفي للطفل الوليد أنه قد ترك لرعاية جدته لأمه.. لأن الأطفال لا يربون بالنيابة عن آبائهم وأمهاتهم الطبيعيين إلا للضرورة القدرية وحدها وهي لم تتوافر في ظروفكما.. ولأن الضرورة المادية التي اقتضت سفركما بغير اصطحاب هذا الطفل الوليد معكما لم تكن تتطلب منكما هجره لأكثر من أسابيع أو شهور ينضم بعدها إلى أسرتكما وينعم بالنشأة الطبيعية بينكما، وتتشابك خيوطه مع خيوطكما منذ الصغر، أما تركه لمدة ست سنوات كاملة وفي مرحلة بالغة الأهمية في حياة الطفل تتحدد خلالها معظم سمات تكوينه النفسي الذي يصاحبه غالباً بقية عمره، فلم يكن اختياراً عادلاً ولا سليماً من الناحية التربوية، ولم يخفف من الأثر السلبي له محاولتكما تصحيحه بضمه إليكما فيما بعد لأنكما بدلا من أن تستوعبا استشعاره

للغربة بينكما ونفوره العاطفي منكما وتترفقا به إلى أن تنسج والاعتياد خيوط المودة والتفاهم بينه وبينكما، آثرتما اتباع أسلوب «الحسم» معه وهو طفل صغير في السادسة من عمره يشعر بأنه قد انتزع من بين أحضان أمه الحقيقية في مصر، ليعيش بين غرباء لا وقت لديهم ولا استعداد للترفق به إلى أن يألفهم.

وليت هذا الاختيار الخاطىء كان آخر الاختيارات الخاطئة في التعامل مع هذا الابن الأصغر.. فلقد تلاه اختيار آخر لا يقل خطورة عنه وهو اختيارك لعدم التدخل بينه وبين أمه التي أكثرت من إهانته وتجريحه لأتفه الأسباب حتى تحول إلى طفل منطو على نفسه وشديد الهزال لانعدام شهيته للطعام ظاهرياً ولافتقاده الدفء العاطفي في حياته في الحقيقة ولقد تواصلت هذه الاختيارات الخاطئة حتى بلغت قمتها في فرض زوجتك لإرادتها على ابنها في نوع الدراسة الجامعية التي التحق بها على الرغم من كراهيته الشديدة لها.. ورغبته في غيرها. فكان التعثر الدراسي وانتهاء مرحلة التفوق من حياته أهون عواقب هذه الاختيارات.. أما أوخمها وأبعدها أثرة على شخصيته وعليكم فهي انفصاله عاطفيا ومعنوية عنكم.. وتقوقعه داخل ذاته واستشعاره للنبذ وعدم الجدارة إلى الحد الذي بلغ به الشك في صحة بنوته لكم!

ولقد كان من الممكن أن تتداركوا الكثير من هذه النتائج السلبية لو كنت قد أثرت ألا تدع كل أمر هذا الابن لوالدته دونك حتى لو كان أسلوب تربيتها قد أثبت نجاحاً عملياً من قبل مع أخويه، فالحق أن تربية الأبناء ورعايتهم أخلاقياً وتربوياً مسؤولية مشتركة بين الأبوين ولا يجوز التفويض فيها لأحدهما بتحمل كامل المسؤولية عنها دون الآخر كما فعلت أنت.

كما أن الإشارة الخطيرة إلى قرب وقوع الانفجار كانت كافية أيضا للإنذار المبكر بالخطر والنهوض لعلاج الأخطاء قبل استفحالها.. وأقصد بهذه الإشارة سلاح الصمت الذي اعتمده هذا الابن معكم جميعا منذ سن المراهقة. فإذا كان صمت الأطفال دليلاً أكيداً على تعاستهم لأنه خروج على طبيعتهم المتفائلة والصاخبة، كما يقول لنا الأديب الروسي الخالد دستويفسكي في رواية (المساكين)، فإن صمت الأبناء في سن المراهقة وبواكير الشباب إشارة مخيفة إلى انفصالهم المعنوي واغترابهم النفسي عن ذويهم وإلى انهيار الجسور التي تصلهم بهم. فالصمت إذا تواصل واستمر، كما في مثل ظروف هذا الابن، هو سلاح المقهور للاحتجاج السلبي عما يعتبره إجحافة به أو غير مرض له، وإشارة ابنك إلى طاعته العمياء لكل ما يقوله أبوه وأمه حتى لو لم يتفهما ظروفه تأكيد مؤلم لهذا المعنى، لأن الطاعة العمياء من شيم العبيد الذين يطيعون أوامر سادتهم وهم ينطوون لهم على أسوأ مشاعر القهر وربما الحقد والكراهية وقد لا يتورعون إذا أتيحت لهم الفرصة عن البطش بهم، لهذا فنحن لا نسعد-آباء وأمهات - بمثل هذه الطاعة العمياء المقهورة من أبنائنا وإنما نسعد بالطاعة الإرادية الحرة القائمة على الفهم والاقتناع وتبادل الآراء وتعبير الأبناء عن أنفسهم ورغباتهم الحقيقية بحرية.

وعلماء النفس يقولون لنا إنه لا يبدع أبدأ من يعتاد الطاعة العمياء والرضوخ الكامل والإذعان التام لما يقوله الكبار من حوله، لهذا فلم يكن مستغرباً ألا

«يبدع» ابنك في دراسته التي أرغم عليها، وبدلا من التماس العذر له والصبر عليه حتى ينهي دراسته بسلام انطلقت عليه سهام التجريح والإهانة حتى بلغ السيل الزبى.. وانفجر البركان المكتوم في أعماقه.

لهذا، فإني أقول لك في النهاية إنك وزوجتك وابنيك الآخرين المتباعدين عن هذا الابن مسؤولون جميعا عما يعانيه من تعثره الدراسي وعزلته واكتئابه وصمته.. وافتقاده الإحساس بالجدارة والانتماء إليكم، ومطالبون جميعا باستعادته إلى أحضانكم والتعامل مع معاناته باحترام وفهم وليس باتهامه بالتدلل أو التمرد، فهو شاب طيب وسيىء الحظ ويحتاج إلى ترفقكم به وإشعاره بعطفكم وحنانكم وليس إلى مزيد من الإهانة والتجريح والقسوة.. وإلا تفاقمت العواقب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذكرى الغالية!

أنا سيدة في السادسة والعشرين من عمري، نشأت بإحدى مدن الأقاليم في أسرة متوسطة الحال، بين أب وأم و أشقاء وكغيري من البنات حلمت مع مطلع الشباب بالفارس الذي سيغزو قلبي في الوقت المناسب.. وأتشبث به.. ونقيم معا عشنا الصغير. وأنهيت دراستي.. فجاء الفارس.. ولم أكن قد رأيته قبل ذلك سوى بضع مرات في مناسبات متفرقة بالرغم من قرابته لي فلقد شق طريقه مع أسرته في مدينة أخرى غير مدينتنا وعمل بالتجارة ونجحت تجارته، ثم أراد أن يبحث عن نصفه الآخر فرجع إلى مدينته الأصلية، وقاده النصيب المكتوب إلي. وما أن تقدم إلي طالبا يدي.. حتى تغيرت نظرتي السابقة إليه من مجرد قريب اسمع عن نجاحه في الحياة العملية ونبوغه المبكر وأصبحت أراه بعين مختلفة ويخفق قلبي واضطرب حين يتحدث إلي.. ووسط فرحة الأهل على الجانبين بارتباطنا.. تمت خطبتي إليه.. ولاحظت خلال مرحلة الخطبة سعادة إخوته الكبيرة بي ثم مضت الأمور في طريقها الطبيعي.. وتم إعداد عش الزوجية في سرعة قياسية وعلى أحسن مستوى.. وكلما تأخر إعداد شيء من الجهاز. ألح أهل زوجي بالإسراع بالانتهاء منه في أقرب وقت وسعدت بتعجلهم إتمام الزواج على هذا النحو واعتبرته نوعا من الترحيب الحار بي، وتم الزواج في حفل سعيد.. وانتقلت إلى بيت الزوجية الجديد في المدينة التي تقيم بها أسرة زوجي ومضت الفترة الأولى من الزواج سعيدة ومبهجة وواعدة بكل خير. ولم تمض أسابيع حتى كانت ثمرة الحب قد تحركت في أحشائي.. وبدأت مرحلة جديدة من متاعب العمل اللذيذة في حياتي وزاد من سعادتي ابتهاج إخوة زوجي الكبير بخبر حملي وحفاوتهم الزائدة به، ولم يخفف من الفرحة بعض الشيء سوى تعرض زوجي لوعكة صحية طارئة تردد بسببها على الأطباء، وانتظم في العلاج وتحسنت حالته ورجعت الأحوال إلى طبيعتها السابقة.. ثم جاء موعد ولادتي ووضعت طفلتي الجميلة.. وبدأنا نستعد للاحتفال بيوم «سبوعها».. واحتفلنا بالمولودة السعيدة احتفالا كبيرا.. وفي المساء عاودت الوعكة الصحية زوجي الشاب وكانت شديدة بعض الشيء هذه المرة.. فتكدرت وشعرت بالحزن من أجله.. وفي صباح اليوم التالي غادر مع إخوته مدينتنا ليعرض نفسه على طبيب كبير في الإسكندرية، ورجع من الرحلة منهكا ومهموما وسألت أشقاء زوجي عما قاله الطبيب. فهونوا عليّ الأمر وقالوا إنها مجرد نزلة قولونية بسيطة وسوف يشفي بالأدوية بإذن الله.. فاطمأن قلبي وبذلت جهدي لرعاية زوجي وخدمته خلال هذه الوعكة.. لكن كثرة الأدوية التي يتناولها أثارت قلقي.. فأردت أن أطرد القلق والوساوس من ذهني وفتحت إحدى علب الأدوية لأقرأ النشرة الطبية الخاصة بها وأعرف المزيد عن حالته الصحية، فإذا بي أجدها خالية منها ففتحت بقية العلب، فإذا بها كلها خالية من هذه النشرات.

وتحسنت صحة زوجي بعض الشيء ورجع إلى عمله.. لكنه انتكس مرة أخرى واضطر للسفر للقاهرة لطلب العلاج لدى أطبائها.. وبعد ذلك كثر تردده على أطباء

القاهرة وعودته من السفر مرهقا ومهموما.. وفي كل مرة لا يسمح لي بمصاحبته في السفر ويصطحب معه أحد إخوته دوني.

ومضت بنا الحياة وحالة زوجي الصحية تتحسن في بعض الأوقات، فيرجع إلى عمله وتغرد عصافير السعادة في بيتنا الصغير.. وتسوء في أوقات أخرى، فيخيم الحزن والهم والقلق على حياتي.. إلى أن فوجئت بعد عامين من زواجي بدخوله المستشفى لإجراء جراحة تتطلبها حالته.. وأجريت له الجراحة ورجع إلى البيت بعدها معظم الوقت يدير عمله التجاري بالتليفون.. ويستقبل المتعاملين معه في بعض الأحيان وهو في فراشه.. وأنا أقوم على خدمته والسهر على راحته.. وأتطلع لليوم القريب الذي سيسترد فيه عافيته.

لكن الآمال قد لا تتحقق لمن يتعلق بها في كثير من الأحيان، فلقد ازداد ضعفه وتوالت الأزمات الشديدة عليه.. وإذا به بعد ستة أشهر من جراحته يلفظ أنفاسه الأخيرة.. ويودع الحياة تاركا وراءه أرملة في أوائل العشرينيات من عمرها وطفلة لم تكمل عامها الثالث!

وإذا بي اكتشف يوم رحيله عن الدنيا أنه كان مريضا بالمرض الخطير من قبل أن يتزوجني، وأسمع من بين دموعي ونواحي خلال أيام العزاء والمواساة بعض إخوته يتحدثون عن نجاحهم في إخفاء حقيقة مرضه عن الجميع طوال السنوات الماضية.. بل وعن «اعتزازهم» بأنهم قد أفلحوا في أن تكون لهم منه «ذكرى غالية» هي طفلته!

وتساءلت في أعماقي : ألم يكن من حقي أن أعرف حقيقة مرض زوجي قبل الارتباط به كي اختار لنفسي طريقي في الحياة على بينة؟

أو لم يكن من حقي ولو بعد أن تزوجت منه أن أعرف ماذا يواجهة زوجي ووالد طفلتي من متاعب صحية؟

لقد أسودت الدنيا في وجهي.. وفهمت لأول مرة لماذا كانت الأدوية كلها خالية من نشراتها.. وامتثلت لأقداري وآملت في أن تعوضني ابنتي عن السعادة التي وئدت في مهدها. لكن أحوال الدنيا لم تسمح لي حتى بذلك العزاء، فلقد بدأت متاعبي مع إخوة زوجي حول ميراثه، وخاصة بعد أن استكتبني أحدهم توكيلا له لإدارة تجارة شقيقه ولم تفلح أي محاولة على المستوى العائلي لحل مشكلات نصيبي ونصيب ابنتي في ميراث زوجي الراحل، وكان الحل المقترح من جانب أسرته هو أن يأخذوا طفلتي مني لكي تنشأ بينهم ويتكفلوا برعايتها.. ورفضت هذا الحل الظالم نهائيا.. ورجعت بفستاني الأسود وطفلتي اليتيمة لأعيش في كنف أبي بالرغم من قلة رزقه، وعرفت بعد عودتي الحسيرة أن إخوة زوجي قد اقتسموا شقة الزوجية بينهم وبدأوا في بيع أجزاء من تركة زوجي، وامتنعوا عن سداد أقساط التأمينات بحجة وقف النشاط التجاري، وذلك بهدف حرماني من معاش التأمينات المستحق لي عن زوجي، حتى أضعف وأسلم باليأس وأسلمهم ابنتي

إنني أكتب هذه الرسالة لتحذير أصحاب النية الحسنة من غدر الأحباب، وأيضا عسى أن تقوم وزارة التأمينات بتسوية وضع زوجي الراحل ومنحي المعاش المستحق عنه لكي أرعى طفلتي به إلى جانب ما تسهم به أسرتي في ذلك، فهل تستطيع مساعدتي في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لو كان إخوة زوجك الراحل «يعتزون» حقاً «بالذكرى الغالية» التي خلفها وراءه شقيقهم، لفرض عليهم هذا الاعتزاز أن يوفروا لها الظروف المثلى لنشأتها في أحضان أمها إلى أن يشتد عودها، ولجنبوا أرملة أخيهم خوض المعارك لانتزاع حقها وحق طفلتها المشروع في ميراث أبيها ولأحاطوهما معا بالرعاية الكاملة ووفروا لهما الحياة الكريمة سواء في مدينتهم أو مدينتها.. بما يترتب لهما من حقوق الإرث في تركة أخيهم.

أما أن يحاولوا انتزاع الطفلة الصغيرة من أحضان أمها بدعوى تنشئتها ورعايتها في كفالتهم، ويضغطوا على الأم بحرمانها وحرمان هذه الطفلة نفسها من حقوقهما المشروعة في الميراث، فليس ذلك من الاعتزاز الحقيقي بذكرى شقيقهم الراحل، ولا بامتداده في الحياة الذي تمثله الآن هذه الطفلة الحائرة في شيء.

ومن المؤسف حقا أننا في تسابقنا المحموم على أعراض الدنيا كثيرة ما نخدش جلال المواقف الحزينة التي ينبغي أن تتوقف فيها الصراعات والأطماع ثم نزعم بعد ذلك وفاءنا لذكرى الأعزاء الراحلين.. ونحزن لفراقهم.. ونذرف الدمع في مناسبات تذكرهم!

وذلك بدلا من أن نتعلم من عبرة الموت ما يجعلنا أكثر عدلا مع الحياة، إنني أؤيدك تماما في عدم خضوعك لهذا الضغط المادي عليك لكي تسلمي طفلتك لإخوة زوجك الراحل فحضانة الصغير في المرحلة الأولى من عمره حق للأم قبل غيرها ثم لمحارمه من النساء من بعدها، ثم لمحارمه من الرجال من بعدهن.

ولقد حسم هذا الأمر بالهدي النبوي الحكيم حين جاءت امرأة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقالت: يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وحجري له حواء وثديي له سقاء، وأن أباه طلقني ويزعم أنه ينتزعه منى. فقال لها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.. «أنت أحق به ما لم تتزوجي»

كما حكم الصديق أبو بكر رضي الله عنه بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومطلقته الأنصارية في مسألة حضانة ابنها عاصم فقال له أبو بكر : «ريحها ومسها ومسحها وريقها خير له من الشهد عندك».

وقد كان عمر أباه، فما بالك بالأعمام الذين يسعون لحرمان أرملة أخيهم من حقها المشروع في ميراث زوجها ويحجبون حق طفلته الصغيرة نفسها في إرثه لكيلا تستفيد بشيء منه أمها؟

إن الأم التي تتهلل للتخلي عن وليدها الصغير، بمثل هذه السهولة إنما تكرر نموذج الضفادع التي تضع بيضها في المستنقع ثم تترك صغارها تكافح بمفردها للبقاء والنجاة من الأعداء الطبيعية لها.

وليس ذلك مما يشرف أي أم.. وما ينبغي له أن يكون من «مؤهلات» الرضا عنها لدى أهل الزوج أو من أسباب«تساهلهم» معها للحصول على بعض حقها المشروع لديهم في ميراث زوجها، بل ينبغي له أن يكون من أسباب غضبهم عليها وسقوط اعتبارها في نظرهم.

فعلى أي شيء إذن ينازعك هؤلاء الإخوة «المعتزون» بذكرى أخيهم الغالية؟

وأي «فخر» في أن يتكتموا حقيقة الحالة الصحية لأخيهم وهم يتقدمون معه لخطبة فتاة صغيرة تحلم بحقها العادل في السعادة؟

وأي عدل في أن يحجبوا عنها هذه الحقيقة المؤلمة نفسها حتى بعد أن شاركت أخاهم حياته وارتبط مصيرها بمصيره؟

وأي «عزاء» هذا الذي يقدمونه لها عن استدراجها للارتباط بشقيقهم بغير مكاشفتها بحقيقة حالته الصحية، وترك حق الاختيار لها، فلا يكون تكفيرهم عن هذا الجرم الأخلاقي تجاهها سوى محاولة انتزاع طفلتها منها أو حرمانها هي وطفلتها من كل حق لهما في ميراث شقيقهم؟

إنني أطالبك بالتمسك بحضانتك لطفلتك.. وبحقها وحقك في ميراث أبيها، واستخدام كل الوسائل القانونية الممكنة لانتزاع الحقوق ممن يرفض ردها، أما طلبك بشأن معاش التأمينات الخاص بزوجك الراحل، فإنني أضعه أمام السيد رئيس الهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية.. وآمل في اهتمامه بحث أمرك وتذليل الصعوبات التي تحول دون نيلك لحقك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الزيارة المفاجئة!

أكتب إليك لأستشيرك فيما يشغل فكري الآن ويقضي مضجعي.. فأنا سيدة في الخمسين من عمري، عشت حياتي الزوجية في سلام مع زوجي إلى أن اختاره الله إلى جواره قبل سنوات قليلة، وقد تجاوزت صدمة رحيله عن الحياة بالصبر والإيمان، وشكرت ربي على ما وهبني من نعمة الأبناء والحياة الهادئة، وسعدت بزواج ابنتي الكبرى وسفرها مع زوجها إلى الخارج، وبتخرج ابني الآخر وعمله بوظيفة جيدة وشعرت بأن رسالتي في الحياة قد أوشكت على التمام، حيث لم تبق أمامي سوى الابنة الصغرى التي تدرس الثانوية العامة، فوجهت لها كل اهتمامي وحرصت على توفير الجو الملائم لها، وأدت امتحانها وظهرت نتيجته، فكان مجموعها أقل من أن يسمح لها بالالتحاق بالكلية التي ترغبها في مدينتنا.. ورشحها مجموعها للالتحاق بكلية مناظرة ولكن في إحدى جامعات الجنوب.. فواجهت الخيار الصعب بين أن أحرمها من الالتحاق بكليتها المرغوبة مع ما في ذلك من متاعب اغترابها بعيدة عني وقلقي عليها من الغربة.. وبعد تفكير طويل شاركني فيه الأبناء، استقر الرأي على ألا أحرمها من رغبتها في الدراسة التي تفضلها وأن تسافر للإقامة في عاصمة المحافظة التي تقع بها الجامعة على أن تقيم مع بعض زميلاتها كما تفعل فتيات أخريات في مثل ظروفها، وسعدت ابنتي بهذا القرار، وبدأت تستعد للمرحلة الجديدة في حياتها.. وجاء موعد سفرها للدراسة.. فأعددت لها كل ما تحتاج إليه في غربتها وزودتها بنصائح الأمهات في مثل هذه الظروف وأوصيتها بالأخلاق الحميدة والملابس المحتشمة ومصادقة الفاضلات من زميلاتها دون غيرهن، وسافرت ابنتي مودعة مني بالدموع حيث إنه أول فراق بيني وبينها منذ ولادتها، وسافر معها أخوها إلى عاصمة المحافظة.. وبحث لها عن سكن مشترك مع بعض زميلاتها وترك أخته بين زميلات السكن وفي رعاية صاحب البيت الذي يؤجر شققه للطالبات المغتربات في مدينته، ورجع ابني فطمأن قلبي الملهوف وأكد لي أن إقامة طالبات هذه الجامعة المغتربات في شقق سكنية مع زميلاتهن أمر منتشر في هذه العاصمة، وأن أصحاب المنازل التي تؤجر للطالبات يتعهدونهن بالرعاية ويحرصون على سمعة منازلهم.. واطمأن قلبي بعض الشيء ومضت شهور الفصل الدراسي الأول ثقيلة وبطيئة، ورجعت ابنتي في أول إجازة لها فاستقبلتها بالأحضان والقبلات والدموع.. ووجدتها كما عهدتها من قبل هادئة ومحتشمة في مظهرها وإن كانت قد اكتسبت من غربتها بعض الجدية والاعتماد على النفس، وانقضت فترة الإجازة سريعا ورجعت لاستكمال الفصل الدراسي الثاني وتكرر مشهد الوداع والبكاء، ودعوت لها الله سبحانه وتعالى أن يحميها من كل سوء، ثم انتهى الامتحان ورجعت ابنتي في إجازة الصيف، فلمست هذه المرة اختلافا كبيرا في شخصيتها.. فلقد وجدتها ترتدي البنطلونات الضيقة «والبودي» وغير ذلك من الملابس الشبابية.. وناقشتها في ذلك وطالبتها بالعودة للملابس المحتشمة التي كانت ترتديها من قبل، فأجابتني بأن هذا هو الشائع الآن في الجامعة وأنها لن تكون «متخلفة » عن زميلاتها!

وكررت معها المحاولة ونصحتها كثيرا وتشاجرت معها دون جدوى، فاستعنت عليها بشقيقها الذي تحدث معها طويلا ثم رجع إليّ يطمئنني على أخته ويؤكد لى أنه لا خوف عليها لأنها جادة وملتزمة.

وعادت ابنتي إلى كليتها.. ومن هناك أرسلت إليّ تطلب نقودا إضافية لحاجتها إلى دورات دراسية، وأرسلت إليها ما طلبته، ثم تصادف أن زارتني صديقة لها تدرس معها بالكلية نفسها وكانت ابنتي قد أبلغتني أنها تتلقى معها هذه الدورات، فسألتها عن نظامها وجدواها.. واكتشفت من خلال حديثها أنها خالية الذهن عن هذا الموضوع نهائيا وأنها لا تتلقى مع ابنتي أية دورات دراسية!

وكتمت دهشتي عن هذه الصديقة.. وافترسني القلق والشك في ابنتي، فقررت أن أريح نفسي من هذا العذاب بالسفر إلى المدينة التي تقيم بها والاطمئنان على أحوالها هناك في سكنها وكليتها، وركبت القطار بغير أن أبلغ ابنتي مسبقا بزيارتي لها.. ووصلت إلى عاصمة المحافظة في الظهر واهتديت إلى المسكن الذي تقيم فيه مع زميلاتها.. وطرقت الباب، فاستقبلتني صديقاتها ورحبن بي ولم أجد ابنتى معهن، فجلست أنتظر عودتها، ودخلت إلى غرفتها ورتبت ملابسها وأشياءها وقلبت في بعض أوراقها.. فإذا بي أجد خطابا بخط يدها إلى شخص لا أعرفه تدعوه فيه ب «زوجي العزيز» وتحدد له موعدا للقاء في المسكن عقب سفر زميلاتهن إلى أسرهن!.. وصعقت لما قرأته وشعرت بما يشبه الدوخة، فتمددت على الفراش لبعض الوقت لكي أحاول تمالك نفسي وانفجرت في البكاء وحدي في الغرفة المغلقة.. وأخفيت دموعي عن زميلات السكن إلى أن رجعت ابنتي في المساء وفوجئت بوجودي في غرفتها.. وفوجئت أكثر ذلك بسؤالي لها من هذا الشخص الذي تدعوه « زوجها العزيز» وتوقعت أن تنكر كل شيء.. وتكذِّب ظنوني ومخاوفي ففوجئت بها تقول لي في هدوء إنها «متزوجة» بالفعل من هذا الشخص عرفيا.. وأنه يكبرها بعامين وأنها لم ترتكب حراما.. بل إن هذا هو «السائد»، الآن.. وأنهما متفقان على أن كلا منهما يستطيع أن يتخلص من الآخر في أي وقت يشاء فيه ذلك!!

ثم تركتني واتجهت للمطبخ لتحضير العشاء وكأن شيئا لم يكن! وتجمدت أنا في موقفي كأنما قد أصابني الشلل في جسمي، وفي عقلي، وحين رجعت بعد قليل كنت قد تمالكت نفسي، فانفجرت فيها وانهلت عليها ضربا وركلا وصراخا، فأسرعت بالفرار إلى الحمام وأغلقته على نفسها من الداخل واعتصمت به رافضة الخروج منه حتى الصباح.

أما ما حدث لي بعد ذلك، فأنا لا أذكر منه سوى أنني أغمي علي أكثر من مرة..

والآن يا سيدي، فإنني حائرة في أمري وأمر ابنتي ولا أدري ماذا أفعل معها وبها، فلقد تكتمت قصتها حتى الآن عن أختها وأخيها وكل أهلي، ولا أدري ماذا سيفعلون معها إذا عرفوا بما حدث.. فهل أقوم بإبلاغهم بما كان من أمرها أم أواصل تكتمه ومعاناته وحدي.. وهل أرغمها على ترك هذا الشاب وترك كليتها كلها والعودة لمدينتي والالتحاق بأي كلية فيها أم ماذا أفعل..؟

وأين الخلل يا سيدي الذي أدى بنا إلى هذا الوضع الخطير هل هو في تربيتي وتربية زوجي الراحل لها؟

لقد أخذناها في تربيتنا لها بالحزم والحنان معا.. فكيف تسفر مثل هذه التربية عن هذه الكارثة يا سيدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أبشع من ارتكاب الخطأ ألا يشعر مقترفه بأنه قد أتى أمرا إذا يستوجب الحساب والعتاب، فضلا عن الرجوع عنه. ذلك أن الإقرار بالخطأ هو الخطوة الأولى على طريق الرجوع عنه وتقويمه.. أما التعامل معه وكأنه من طبائع الأمور وبدهيات الحياة.. فلا يكشف إلا عن خلل خطير في القيم والمفاهيم لدى مرتكبة لا يبشر بأي أمل قريب في إمكان رجوعه عنه.

والإنسان السوي قد يضل الطريق في بعض الأحيان لكنه يظل واعياً دائماً بما اقترف ولا يجادل في خطأ ما فعل، حتى لو حاول تبريره والتماس العذر لنفسه فيه بضعفه أمامه، أو بغير ذلك من المبررات..

أما من يرتكب أفدح الأخطاء ولا يراوده في الوقت نفسه أي إحساس بخطأ ما فعل، فإنه يضيف إلى أخطاء السلوك، انحراف التفكير واهتزاز القيم.. وفساد المنطق، وضعف الأمل في إصلاحه ورجوعه من خطئه، فضلا عن فجر المجاهرين بالخطأ الذين أرشدنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يحبهم، وقد يترفق بالمخطىء على استحياء.. ويضاعف العقاب لمن لا حياء له وإحساس ابنتك بأنها لم تقترف «حراما»، بمثل هذا الزواج العرفي الذي ارتبطت به بغير إذن أوليائها.. يكشف في الحقيقة عن انحراف في القيم أفدح من الخطأ الذي ارتكبته نفسه.

فالزواج العرفي الذي يستوفي كل شروطه وأركانه إذا كان صحيحا شرعا، فإن إقدام فتاة صغيرة على الارتباط بشاب تحت مسمى الزواج العرفي بعيدة عن نطاق الأهل.. وبغير علمهم.. وموافقتهم هو خطأ أخلاقي فادح يتنافى مع كل القيم والأعراف العائلية والأخلاقية.. ولا يمكن الدفاع عنه أبدأ بأن مرتكبه لم يقترف «حراما»، أو بأن هذا هو «السائد» في الجامعة كما تزعم ابنتك.

بل ولا يمكن تبريره أو تفسيره إلا بالطيش والاندفاع والاستسلام للأهواء والرغبات.. وخيانة ثقة الأهل.. وافتقاد التقدير الصحيح للمسؤولية الأخلاقية للإنسان تجاه نفسه وأعزائه ومن يهتمون بأمره، فنحن لا نعرف كيف تم هذا «الزواج» العرفي المزعوم بين ابنتك وهذا الشاب، وهل استوفي شروطه وأركانه وتم الإشهاد عليه أم لا؟ وهل تم بنية الاستمرار وتحويله إلى زواج رسمي في المستقبل القريب. أم بنية التمتع المؤقت خلال مرحلة الدراسة

والاغتراب كما يوحي بذلك «اتفاق» طرفيه على أن يتخلصا منه إذا شاء أحدهما ذلك في أي وقت!

لكننا نعرف بكل تأكيد أن الزواج العرفي الذي يفتقد الإشهار ونية الاستمرار باطل باتفاق مذاهب أهل السنة. وأن الظروف المحيطة بالقصة كلها لا توحي بفهم طرفيه لقدسية الزواج واستمراريته وتكفي سرية هذا الزواج وإتمامه بعيداً عن نطاق الأهل لكي تحيط به الشبهات وتخرجه من نطاق الزواج المشروع إلى نطاق آخر لا يختلف كثيرا عن نطاق العلاقة السرية المتشحة برداء زائف من المشروعية!

وإني أرى لك يا سيدتي ألا تتحملي كل هذا العناء وحدك بل تشركي معك فيه ابنك الأكبر وابنتك المتزوجة، على أن تبدئي خطواتك لإصلاح ما فسد بدراسة وضع ابنتك الحالي بعد هذا الزواج المزعوم، فإذا كان قد سبق السيف العزل ولم يعد هناك ما يرجى سوى تصحيح الخطأ وإسباغ الشرعية الحقيقية عليه، فإن من واجبك كأم أن تسعى مع ابنك إلى أهل هذا الفتى وتطالبيهم بتحمل مسؤولية ما اقترف ابنهم في حق ابنتك، ومساعدتك على تحويل هذا الارتباط العرفي الشائن إلى زواج صحيح مشروع، وذلك بعقد قرانه على ابنتك واعتبارهما خطيبين ينتظران انتهاء الدراسة لبدء رحلة الزواج الحقيقية.

أما إذا كان الأمر غير ذلك، فإن هذه الظروف الشائكة تتطلب منك أن تلازمي ابنتك حيث تقيم، وتفرضي عليها رقابتك وإشرافك إلى أن تمضي الفترة المتبقية من العام الدراسي في سلام، على أن تحاولي خلال ذلك اختبار مدىجدية ابنتك في التمسك بهذا الشاب وعمق رغبتها فيه، وظروف هذا الشاب نفسه وصدق رغبته في الارتباط بابنتك فإذا اطمأن قلبك إلى جديته وأمانته وصدق رغبته في ابنتك فليتقدم مع أهله لخطبتها منك.. مع تخلصهما في نفس الوقت من هذا الزواج المريب.

أما إذا تكشفت لك التجربة عن عبث هذا الشاب وعدم جديته، فإن خير ما تفعلينه هو أن ترجعي مع ابنتك عقب أدائها امتحان هذا العام إلى مدينتك وتفرضي عليها الانتقال من هذه الكلية إلى أية كلية أخرى مناظرة أو غير مناظرة لكي تكون تحت أنظارك وحتى تبرأ من آثار هذه النزوة المدمرة وتثوب إلى رشدها.. وتدرك أن إنقاذها من الضياع أهم كثيرة من نوع الدراسة التي تهواها أو العمل الذي ترغب في ممارسته بعد التخرج، فهي لم تغترب من الأصل لكي تنخرط في علاقة سرية مؤقتة تتسربل بقناع الزواج العرفي مع شاب عابث وإنما لكي تحقق أهدافها في الحياة ولقد أجرمت في حق نفسها وأسرتها حين غفلت عن الهدف الأساسي من اغترابها وتورطت فيما تورطت فيه، ومن واجبها أن ترضى بدفع الثمن العادل لما اقترفت من أخطاء فادحة حتى لو اقتضى ذلك تغيير مسارها في الدراسة والحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

درجات الرأفة!

أنا رجل في الثامنة والثلاثين من عمري أعمل عملا مهنيا مرموقا ولدي مكتب خاص، هادىء الطباع وطيب القلب ومن أسرة متوسطة الحال لكن لها تراثها في الأخلاق والتربية والأصل الكريم.. ولقد تعرفت ذات يوم على زميلة لي في مجال عملي ورشحها الزملاء لي للزواج.. ووجدتها مناسبة لي، فتقدمت لخطبتها وتم عقد القران وتزوجنا. وبعد الزواج تكشفت لي شخصيتها الحقيقية، فإذا بها إنسانة حادة الطباع، سليطة اللسان، قبيحة الألفاظ.. وحاولت كثيرا إصلاحها وخاصة بعد أن رزقنا الله طفلة جميلة ولكن دون جدوى فاستسلمت لأقداري، ورضيت بحياتي كما هي واستمر زواجنا ثماني سنوات لم نعش خلالها معا أكثر من بضعة شهور في مجموعها.. أما بقية الأيام فلقد هجرتني خلالها وأقامت في بيت أهلها على فترات متقطعة، وفي آخر مرات هجرها لبيت الزوجية طلبت الطلاق وأصرت عليه وحاولت بكل ما أملك من حيلة استعادتها مرة أخرى، وحاول معي الأهل جاهدين ذلك لكنها تمسكت بمطلبها، ولم أجد مفرا من إجابتها إليه، فطلقتها منذ عامين وأنا حزين لفشلي في حياتي الزوجية، ونشأة طفلتي الوحيدة بعيدا عني.. وزاد من أسفي أنني علمت بعد طلاقي لها أنها حامل في جنين آخر، وبعد شهور أنجبت طفلة أخرى.

أما أنا قد سلمت أمري إلى الله وعشت حياتي في كنف أسرتي، وحاولت نسيان مرارة التجربة والتعزي عنها.. وذات يوم دخلت مكتبي سيدة جميلة هادئة الطباع مع طفل لها في عمل يتعلق بها فأديت العمل المطلوب مني لكني وجدت نفسي منجذبا إلى هذه السيدة بإحساس غامض وخلال ممارستي لعملي تبادلت معها أطراف الحديث، فعلمت منها أنها أرملة وأن عمرها ثلاثة وثلاثون عاما ولها طفل آخر أكبر من الطفل الذي اصطحبته معها بعامين وشعرت بالرغبة في أن أراها مرة أخرى، فاصطعنت سببا لتكرار الزيارة وطلبت منها العودة مرة أخرى بعد أسبوع لإتمام العمل الذي جاءت من أجله وانصرفت هي شاكرة، وترقبت عودتهاباهتمام شديد وفي الموعد المحدد جاءت من جديد، فشعرت بالسعادة داخلي.. وبقلبي يخفق في صدري كالمراهقين.

وتجاذبت معها أطراف الحديث، فاسترحت لحديثها العذب وأسلوبها الجميل وطبيعتها الهادئة وجمالها وأناقتها واحترامها لنفسها ولمن حولها، تبادلنا أرقام التليفونات، وبدأت المكالمات التليفونية بيننا وبعد فترة من الاتصالات اعترف كل منا بحبه للطرف الآخر، ووجدت هي نفسها معي ووجدت أنا نفسي معها ولمست لديها الحب والتفاهم والثقة بالنفس.. وكل شيء جميل في الحياة إلى جانب أنها إنسانة مثقفة ولها مركز مرموق في عملها واتفقنا على الزواج.. وبدأت الاستعداد له، فإذا بي أجد نفسي أمام خيار صعب لم يكن في تقديري قبل ذلك، فلقد علمت مطلقتي وأم الطفلتين بنيتي في الزواج، فبعثت بمندوبين من أهلها للصلح.. وجاءت هي نفسها إلى أسرتي فرحبت بها الأسرة وبدأ أهلي يحثونني على إعادتها إلى عصمتي لكي تنشأ الطفلتان بين أحضاني، وفي الوقت نفسه تغيرت

معاملة أسرتي للسيدة الأخرى عند اتصالها بي بالتليفون في البيت وبدأت تشكو لي من تحفظ الأهل أو جفائهم معها حين يجيبون عن مكالماتها وأنا الآن حائر فيما أفعل، فلقد كرهت عشرة زوجتي السابقة بسبب مرارة تجربتي معها، لكني لا أحب في الوقت نفسه أن أظلم الطفلتين وأحرمهما من حقهما في الحياة مع أبيهما، ولو ترك لي الأمر لاخترت أن أعيش مع هذه السيدة الأرملة التي أحبها جدا ولا أطيق فراقها ومعنا طفلاها والطفلتان ونحيا معا كلنا في سعادة، لكني أدرك استحالة تحقيق ذلك في ظل قانون الأحوال الشخصية الذي يعطي حق حضانة الطفلتين لأمهما.. فكيف أواجه هذا المعادلة الصعبة. وأي خيار أختاره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أنت محق بالفعل يا سيدي في ترددك واضطرابك أمام ما تواجهه الآن من اختيار لحياتك وأيامك المقبلة.. ذلك أنه اختيار بين «وعد بالسعادة» مع هذه الأرملة الشابة التي تعرفت عليها بعد عامين من انفصالك عن زوجتك السابقة وبين «وعد بالأمان والاستقرار» لطفلتين صغيرتين يدعوك ضميرك الأخلاقي للوفاء لهما به حتى لو تخوفت من تكرار التجربة المريرة التي عانيتها من قبل.

وكلما كانت الخيارات التي يتردد بينها المرء عادلة ومشروعة، ازدادت حيرته معها غير أن نداء العقل يطالبنا في كل الأحوال بالتروي قبل ترجيح بعض هذه الخيارات على بعضها الآخر. وتجربة العمر تقول لنا إنه لا تأكيد لشيء في الزواج الذي لم تنعقد عراه بعد إلا بالتجربة الفعلية والمعاشرة المشتركة واختبار الأيام لصدق الوعود والأحلام الوردية بالسعادة مع شركاء الحياة، وعلى هذا الأساس أقول لك إن الوعد بالسعادة مع هذه الأرملة الشابة يظل وعداً معلقاً إلى أن تختبره الأيام وتحققه على أرض الواقع. كما أن الاختيار العاطفي في مثل ظروفك هذه وإن كان له ما يؤيده من مبررات ودوافع.. إلا أنه لن يكون خالياً من النواقص والمكدرات لافتقادك لطفلتيك وإحساسك بالذنب تجاههما لحرمانهما من حق النشأة الطبيعية بين أبوين يجمعهما بيت واحد.

أما على الجانب الآخر الخاص بزوجتك السابقة ومعاناتك القديمة معها، فإن توجسك من تكرار التجربة المريرة معها. له أيضاً ما يبرره وما قد يدفعك لترجيح الاختيار العاطفي على قبول مساعيها للعودة إليك، لكنه ليس من المؤكد أيضاً أن تكرر مطلقتك تجربتها السابقة معك بنفس أخطائها وعثراتها وإلا فما قيمة التجربة والخطأ إذن إذا لم تكن قد استفادت شيئا من فشلها معك وحرمان طفلتيها من أبيهما، ومجيء طفلتها الصغرى إلى الحياة في غيبة أبيها؟

لقد أستشعرت الخطر حين علمت بنيتك في الزواج، فسعت إليك هي هذه المرة طالبة العودة إليك، ولابد أن يكون ذلك مؤشراً إيجابياً على تغير بعض أفكارها وملامح شخصيتها وإلا لما تنازلت عن كبريائها السابقة وسعت إليك وقد كانت هي التي رفضت من قبل كل محاولات الصلح وأصرت على الطلاق.

ومعنى ذلك أنك أمام «وعدين» كل منهما غير مؤكد حتى الآن وإن أوحت شواهده بغير ذلك.. الأول بالسعادة مع أرملة شابة جميلة وهادئة صادفتك وأنت في فترة من الضعف النفسي وفقد الثقة في النفس والإحساس بالوحدة عقب مرارة الفشل في الزواج، والثاني بالتعاسة وتكرار المعاناة لدى مطلقتك مع توافر الحد الأدنى من الأمان والاستقرار لطفلتيك، ولأن الإنسان لا يستطيع للأسف أن يخضع المستقبل للتجربة لكي يختار لنفسه طريقه فيه على ضوء نتائج الاختبار فلا مفر أمامه من دراسة الواقع ومحاولة استقراء المستقبل على ضوء ما يتاح له من شواهد وعلامات الطريق، وأول ما ينبغي لك أن تتبصره جيدا قبل اتخاذ أي قرار هو : هل اختيارك العاطفي لهذه الأرملة الشابة هو اختيار نهائي لا رجعة فيه ولا مبدل له أم أنه أختيار «للأفضل» مع إمكان القبول «بالمفضول» إذا رجحته اعتبارات أخرى جليلة الشأن سعادة الأبناء واستقرارهم وخلو القلب من الإحساس بالذنب تجاههم؟

وهل هذه العاطفة التي تحملها لهذه الأرملة الشابة عاطفة حقيقية راسخة وثابتة ثبوت الجنادل لتيارات المياه، أم أنها عاطفة عابرة صادفت قلبا خاليا ونفساً جريحة، فوجدت الطريق ممهدة أمامها بلا عناء؟

وهل تستطيع أن تجزم صادقاً بأن زوجتك السابقة لم تستوعب دروس تجربتها الفاشلة معك ولم تتخلص بالفعل من بعض ما أنكرته عليها خلالها؟.. وبالتالي، فإنك تستطيع استئناف الحياة معها.. وتجاوز صفحتها القديمة معك؟

إنك وحدك من يملك الإجابة عن هذه الأسئلة.. فوجهها إلى نفسك و «اختبر» إجاباتها بموضوعية، فإذا جاءت النتائج في النهاية مؤيدة لاختيارك العاطفي والأمل في السعادة التي ينغصها الحرمان من طفلتيك والإحساس بالذنب تجاههم فامض في الطريق الذي يؤدي بك إليه، وإذا جاءت النتائج مرجحة لكفة الأمل في انصلاح الأحوال بينك وبين زوجتك السابقة.. واستقرار طفلتيك في كنف أبويهما، فإن واجبك الأخلاقي والإنساني يدعوك لترجيح هذا الاختيار والاعتذار للأرملة الشابة عن مشروع الارتباط بها.

أما إذا تساوت الكفتان أو حتى تقاربتا، فإن هذا الواجب نفسه يدعوك بغير تردد إلى تفضيل طفلتيك وزوجتك السابقة.. واحتساب درجات الرأفة لصالحهن أملا في سعادة الجميع واستقرارهم.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحزام المشدود!

أكتب إليك رسالتي هذه لأقص عليك مأساتي التي أعيشها أنا وأبنائي مع زوجي الذي يعمل أستاذ جامعيا وله من عمله دخل ممتاز إلى جانب دخله من المشروعات المتعددة التي تعود عليه بالربح الوفير. فلقد تخرجت في كلية مرموقة بتقدير جيد لكني لم أعمل.. ولعلي لو كنت قد عملت عقب تخرجي لربما كانت المشكلة - التي أكتب لك بشأنها - أخف وطأة.

أما سبب لجوئي إليك، فهو أن زوجي شديد الإعجاب بك وبردودك على من يطلبون مشورتك للخروج بهم من الأزمات التي تواجههم، ولأني على ثقة من أنه سوف يسمعك ويعمل بنصيحتك ويرحمنا من العذاب الذي نعانيه.

فزوجي بالرغم من سعة رزقه يبخل علينا بماله ولا يعطينا منه شيئا على الإطلاق ولكي تشعر بجدية مشكلتنا، فسوف أحكي لك عن نظام حياتنا معه.. فنحن لدينا أبناء في مراحل التعليم المختلفة من الحضانة حتى المرحلة الإعدادية، وزوجي يحرمهم جميعا من المصروف ولا يعطي أحدا منهم قرشا واحدا - كمصروف شخصي له بحجة أن إعطاءهم النقود سيؤثر سلبيا على أخلاقهم ويعرضهم للانحراف ومجاراة أصدقاء السوء!. والنتيجة هي أن أبنائي يمدون أيديهم لزملائهم في المدرسة ليأخذوا منهم قطعة حلوى أو لبان أو شبسي لأنه لا وسيلة لهم لتذوق مثل هذه الأشياء التي يتطلع إليها الأطفال إلا «بتسولها» من زملائهم الذين يقولون لهم إنهم « شحاذون » ويرجع إليّ أبنائي ليشكوا لي من ذلك!

كما أن زوجي يحرمنا جميعا من شتى أنواع الفاكهة بحجة أنها قد تم رشها بالكيماويات والمبيدات الخطيرة جدا على صحة الإنسان، ونظرا لأنه يخاف علينا من أضرارها، فهو يحرمها علينا ولا يسمح بشرائها أو دخولها البيت مع أنني قد أكدت له مرارا وتكرارا أن غسل الفاكهة جيدا بالماء النظيف يكفي لتجنب هذه الأضرار.

أما عن الطعام، فنحن لا نعرف منه طوال أيام الأسبوع إلا الأنواع الشعبية الرخيصة كالفول والطعمية والكشري الإسكندراني وهي طعامنا كل أيام الأسبوع إلى أن يجيء يوم الجمعة.. وهو اليوم العالمي للتغذية في حياتنا، فيقوم زوجي بشراء كيلوجرام من اللحم المجمد ويدخل به المطبخ ليطهوه بنفسه لكي ينفرد به ويظل يتسلى بالتهام معظمه خلال الطهي والأبناء ينتظرون الغداء الشهي بفارغ الصبر، وبعد ساعات من غياب زوجي بالمطبخ يخرج علينا وقد وضع لكل فرد منا قطعة صغيرة من اللحم على طبق الأرز ويبدأ يوم الغداء العالمي في بيتنا.

أما أنواع الحلوى من الجاتوه والشيكولاتة والبونبون، فكلها بلا استثناء من المحرمات علينا لأنها تهدد أسنان الأبناء بالتسوس وهو يريد لأبنائه ولي بالطبع أسنانا سليمة ناصعة البياض!

وذلك بالرغم من أنه حين يشهد معنا حفل زفاف أو قران لأحد الأقارب يلتهم كل ما يقع تحت يده من التورتة والجاتوه بلا رحمة، ويحث أبناءنا على أن يلتهموا منها بقدر ما يستطيعون لكي تمدهم بالنشاط وتعينهم على السهر حتى نهاية الفرح كما يقول لهم!

فضلا عن أنه يمسك بمصروف البيت في يده ولا يعطيني مليما واحدا منه بدعوى أن السيدات لا يصلحن لإدارة الشؤون المالية للأسرة ولأنهن قد خلقن كما يقول لرعاية الزوج والسهر على راحته وراحة الأبناء، ولهذا فإن الزوجة المثالية كما يؤكد لي مرارا وتكرارا هي خادمة و عشيقة فقط ولا تصلح لأي شيء آخر!

والنتيجة يا سيدي هي أنه لولا مساعدة أبي المادية لي لما استطعت اجتياز كثير من مصاعب الحياة التي واجهتها وأواجهها كل يوم.. لكني أشعر بالحرج الشديد من مساعدة أبي لأنه أحق بما يعطيه لي وقد أدى رسالته نحوي ونحو إخوتي على أكمل وجه ولم يحرمنا من شيء.. فإذا بي أصبح عبئا عليه أنا وأبنائي وأنا أعيش في كنف رجل آخر كل همه هو الإدخار والإدخار.

لقد تحدثت إلى زوجي مرارا وتكرارا ولجأت إلى أهلي وإلى أهله لكي ينصحوه بأن يرحمنا ويخفف عنا جفاف حياتنا.. فكان رده عليّ وعلى الجميع أن لديه مشروعات عديدة وطموحات كبيرة لابد له من أن يحققها أولا قبل أن يتخفف من هذا الجفاف، حتى والده الرجل الطيب قال له : ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. فأجابه بنفس الرد وطلب منه أن يدعه يحيا حياته كما يريدها مؤكدا له أنه لا يحرمنا من شيء!

وبعد فشل جميع المحاولات من جانب والدي ووالده قررت أن أطلب منه الطلاق لأتخلص من هذه الحياة المهينة القاسية الجافة لكن بعد أن قرأت رسالة الطفلة التي نشرتها بعنوان «البيت الجميل» والتي تشكو من حرمانها هي وشقيقتها من أمها بعد طلاقها من أبيها، شعرت بالحزن والأسى.. واستشعرت خطورة كلمة الطلاق وخشيت على أبنائي من مصير هذه الطفلة، وحاولت بشتى الطرق إصلاح زوجي وتذكيره بنعمة الله الجليلة علينا وهي الأبناء وكيف أن علينا أن نرعاهم ونوفر لهم الحياة الكريمة، فلم يسمع لي مع أنه كاد يبكي وهو يقرأ رسالة هذه الطفلة في «بريد الجمعة»!

إنني لن أخفي عليك أنني قد اضطررت مع استمرار حرمانه لنا أن أخذ من ماله مبلغا بسيطا لأشتري ملابس الأولادي ولي، ولكي أرى الفرحة في عيونهم بعد طول حرمان من الملابس الجديدة يرتدونها أمام الأقارب والأصدقاء، والنتيجة معروفة مقدما.. فقد ثار عليّ زوجي ثورة عارمة واتهمني بأنني نشالة ولصة وعديمة الأخلاق والتربية ووجه لي شتائم وألفاظا لا أستطيع أن أخطها لك. وتحملت كل ذلك من أجل أبنائي كما تحملت الكثير من قبله.

إنني أرجوك أن توجه إليه كلمة تنصحه فيها بأن يرحمنا وتقول له إن الأبناء نعمة من الله يجب عليه رعايتها وأن لهم عليه حقا ولزوجته كذلك هذا الحق، فلقد قال الله سبحانه وتعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، وهو لا يعترف بزينة

الأبناء ويعترف فقط بزينة المال. سيدي إنك الآن الأمل الوحيد الباقي لنا للخروج مما نحن فيه من حرمان وشقاء.. فهل تستجيب لرجائي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

وهل تظنين حقا يا سيدتي أن كلمة أوجهها إلى زوجك العزيز يمكن أن تعدل به حقاً عن الخطة التي ارتضاها لحياته.. ورضي معها لنفسه وزوجته وأبنائه بهذه الحياة الجافة المحرومة.. حتى ليستطلع أطفاله إلى ما في أيدي قرنائهم ويستجدوهم بعضها؟

لقد تحدثت في رسالتك عن ضرورات الحياة كالطعام والكساء وإشباع رغبات الأطفال فيما يتفكّه به الصغار، ولم تشيري إلى ما لا يعد من كماليات الحياة بالنسبة للقادرين كالنزهات والرحلات والأندية وغير ذلك مما تستروح به الأسرة وتخفف به عنها عناء الأيام، ولقد فشلت مع زوجك كل جهودك وجهود أهلك وأهله في إثنائه عن هذه الخطة الشائنة وهو الأستاذ الجامعي وصاحب المشروعات والأعمال والطموحات، فكيف تنجح إذن كلمة من ناصح مثلي فيما فشل فيه الأقربون.. وكيف تحرك في قلبه ومشاعره ما لم تحركه نظرات الحرمان في عيون الأبناء؟

إن البخل آفة لا علاج لها للأسف.. ولا أمل كبيرة في الشفاء منها إلا في أندر الأحوال، أو تحت تأثير قوى قهرية ضاغطة لا يملك معها صاحبه إلا أن يتنازل كارها عن بعض شحه وتقتيره وليس عن كله تجنبا لأضرار أكثر عليه خطرة من تفريطه المحدود في المال كخطر انفراط عقد الأسرة بالطلاق مثلا إن لم يستجب لمطالب الزوجة بالإنفاق عليها وعلى الأبناء بما يليق بمستواهم الاجتماعي أو ما شابه ذلك من الضغوط. أما عدا ذلك من المناشدات والرجاءات فلا تحرك ساكنة لدى من يرى في المال قيمة تعلو على كل أهداف الحياة وفي مقدمتها سعادة الأبناء والزوجة واستقرار الحياة الزوجية وهناؤها.

لهذا، فإن أفضل السبل لمواجهة هذا الحرمان الذي تكابدينه هو أن يكرر والده ووالدك ضغطهما عليه بشدة لتحديد مبلغ عادل يتناسب مع مطالب الأسرة واحتياجات الحياة للإنفاق عليها شهريا سوتء تمسك هو بإدارة موازنة الأسرة أو تخلى عنها لك، ولو تطلب الأمر أن يتعهد والده بضمان إنفاقه لهذا المبلغ أو تقديمه لك كل شهر.. مع التأكيد له بأن ذلك لن يؤثر على خططه للإثراء وتحقيق الطموحات والمشروعات، وإن كنت ما زلت أعجب ممن يحرم نفسه وأبناءه وزوجته من ضرورات اليوم لحساب «رفاهية» مؤجلة غير مضمونة في الغد.. وقد تجيء وقد لا تجيء وإذا جاءت فقد تجيء بعد أن تكون الصحة قد غابت وفقدت النفس قدرتها على الاستمتاع بمباهج الحياة.. أو تجيء وقد تشبعت نفوس الأبناء بالمرارة تجاه الأب الذي حرمهم في طفولتهم وصباهم وربما شبابهم أيضا من بهجة الحياة، فلما أصابوا الثراء في شيخوخته لم يحملهم ذلك على تغيير

نظرتهم إليه ولم يشفع له عندهم في اكتساب مودتهم ومشاعرهم التي أفسدتها مرارة الحرمان سنوات طوالاً.

إن العقل يقول لنا إن الإنسان ليس مطالبا بأن يحرم يومه مثل هذا الحرمان القاسي لحساب غده الذي قد يجيء وقد لا يجيء وأنه يستطيع ما دام قادر أن يحيا حياة كريمة معتدلة بغير أن يؤثر ذلك على خططه للمستقبل إذا كان مقدرة له من الأصل أن يكون ذات يوم من أهل الثراء ولم يكن من الواهمين الحالمين الذين يجرون وراء سراب حلم الإثراء الواسع بغير قدرات ولا مؤهلات ترشحهم له .

والحق أنه تحيرني دائما قدرة الإنسان على خداع النفس والغير وعلى استخدام المبررات النبيلة في تبرير الأفعال والتصرفات الشائنة وهي سمة ينفرد بها الإنسان دون بقية الكائنات التي لا تخفي رغباتها وغرائزها.. ولا تحاول تجميلها وإلباسها ثوب الفضائل والنبل.. فزوجك يا سيدتي يحرم أطفاله من المصروف - بخلاً وشحاً وتقتيراً عليهم – لكنه لا يعترف بذلك لنفسه ولا لك وإنما يبرره برغبة نبيلة وهدف تربوي سام هو أن يحميهم من خطر الانحراف الأخلاقي!

ويغيب عنه في نفس الوقت أن من الوسائل التربوية أيضا التي تبني شخصية الطفل وتساعده على استقلالية التفكير والتصرف أن يتعود منذ الصغر على التعامل مع النقود وشراء احتياجاته بنفسه وحساب تكلفتها وموازنة دخله من المصروف مع إنفاقه على متطلباته الصغيرة!

وزوجك يحرم نفسه وزوجته وأطفاله من كل أنواع الفاكهة والحلوى فلا يعترف لكم بأنه إنما يفعل ذلك - شحاً وتقتيراً لكي تزداد مدخراته على حساب حرمان أطفاله مما تهفو إليه نفوسهم، وإنما يبرره بالحرص على صحة أفراد أسرته وسلامة أسنانهم!

وهكذا يتواصل خداع النفس والغير إلى ما لا نهاية، وإذا كنت قد افتقدت في رسالتك تبريره «النبيل» لحرمان أسرته وهو الرجل القادر من أطايب الطعام طوال أيام الأسبوع إلى أن يجيء يوم الغداء العالمي كل جمعة، فلن يكون غريبا أن يبرر لكم ذلك أيضا بحرصه على رشاقة أجسام أفراد الأسرة وحمايتها من أضرار السمنة!

والكارثة ليست فقط في أن يرضى هذا الأستاذ الجامعي صاحب المشروعات والطموحات لأسرته بمثل هذا الحرمان القاسي من ضرورات الحياة، لكنها أيضا في هذه الحمى التي تنتاب البعض للإثراء والرغبة في التحول بقدرة قادر إلى أصحاب ملايين ولو أضاعوا في سبيل ذلك أسرهم وأبناءهم وأهانوهم بالحياة الجافة المحرومة وأهانوا أنفسهم في أعين أبنائهم وشركاء حياتهم والأهل الأقربين. ولكل إنسان أن يضع نفسه حيث يراها جديرة بأن تكون وعطاء المرء القادر لأسرته وأبنائه وزوجته إنما يكون على قدر اعتزازه بنفسه وإحساسه بجدارته وليس فقط على قدر إعزازه لهم.

ولقد قيل قديما لرجل : لنا عندك حويجة «أي حاجة صغيرة» فأجابهم الرجل من فوره : إذن فاسألوا لها رجيلاً «تصغير رجل» لأنه يرى نفسه أحق بأن تطلب منه الحاجات الكبيرة وليس سفاسف الأمور الصغيرة!

ولن أقول بدوري لزوجك الأستاذ الجامعي إن لنا لديه «حويجة» هي أن يعطي أبناءه الصغار مصروفا معتدلا ويخصص لزوجته أو لأسرته مبلغا عادلا يلبي به مطالب حياتها بطريقة كريمة تشعر الزوجة والأبناء باعتزازه بهم ورعايته لهم وحدبه عليهم، وإنما سأقول له إن لنا لديك حاجة لا تطلب إلا من الرجال وهي أن ترعى أسرتك وأبناءك وزوجتك بما يليق بك وبمركزك العلمي ووضعك الاجتماعي والمادي لأن مال الدنيا كله لن يعوضك عن تحول مشاعر زوجتك وأبنائك عنك وخاصة بعد أن يشبوا عن الطوق ويتفهموا حقائق الحياة ويتمردوا على الأب الذي يحرمهم مما يتمتع به غيرهم في نفس ظروفهم الاجتماعية، وفي هذه الحالة فلسوف تنفق المال الذي تضن به عليهم الآن كارها أو راغما لكنك ستنفقه تحت ضغط الأبناء بغير أن يكون لعطائك لهم مردود عطاء الأب للأبناء الذي يتألف قلوبهم.. ويجمعهم حوله ويزيدهم حباً له.

فاختر لنفسك ما تشاء يا سيدي فلك - قبل كل أفراد أسرتك - ما سوف تختاره لنفسك، تدفعهم إليه من تنكرهم لك في المستقبل المنظور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روعة الحياة!

أنا سيدة عمري ٣٩ عامة جميلة ومثقفة تزوجت منذ 15 عاما من زميل لي بالعمل بعد قصة حب استمرت 8 سنوات، وأنجبت منه طفلتين هما قرة عيني، وما دفعني إلى الكتابة إليك هو إحساسي بالمسؤولية تجاه غيري ممن أعفاهم ربهم من معاناة التجربة التي كابدتها، فرأيت من واجبي أن ألفت أنظارهم إلى أشياء كثيرة في الحياة يجدر بهم الاهتمام بها وتقديرها حق قدرها.

فمنذ ثلاث سنوات اكتشفت إصابتي بالمرض الخطير، ولن أصف لك ما شعرت به من الرعب والخوف لهذه المفاجأة.. ونمت ليلتي تلك بين طفلتي كأنما احتمي بهما مما أتوجس منه وأريد أن أشعر بالشبع منهما وأشعرهما به، وبعد مداولات طويلة بين الأطباء قررت السفر للخارج لإجراء جراحة.. وأجريتها هناك بنجاح وعدت لحياتي وزوجي وطفلتي.. لكنه بعد عام آخر ظهرت نفس الأعراض وسافرت مع زوجي لإجراء جراحة ثانية وودعت الطفلتين وأهلي هذه المرة وداع من يخشى ألا يراهم ثانية، وتمت الجراحة وكشفت عما كنت أخشاه لكني تقبلت الأمر صامتة وساهمة.. وفي اليوم التالي للجراحة وكنت راقدة في فراشي بالمستشفى أنظر إلى النافذة التي بجواري حين تردد هذا السؤال فجأة في أعماقي : ماذا لو أخبرني الطبيب بأن ما تبقى لي من عمر ليس سوى شهر أو شهور قليلة؟

وما الذي أبدأ بعمله في هذه الحالة!.. والأطباء الأجانب كما تعرف لا يخفون هذه الأمور عن مرضاهم؟ وتأملت حالي وحياتي السابقة وتساءلت : ما هذا المظهر الأوروبي الذي يتسم به مظهري وما هذا الشعر المكشوف وماذا عن علاقتي بزوجي ومناطحتي المستمرة له في السابق، وإلى أين يقودني ذلك إلا إلى الجحيم؟

ثم ماذا لو كان الخطر قد زال عني نهائيا ولم يعد هناك ما يدعو للخوف والتوجس.. هل أرجع إلى حياتي الماضية وأواصلها كما كانت بأخطائها وعثراتها؟ إن صديقاتي يصفنني بالشهامة وبأنني أقدر الجميل ولا أنساه لفاعله وأقف إلى جوار الحق.. فهل أنسى «الجميل» لربي إذا أعاني من الخطر وأرجع لحياتي السابقة؟.

وقبل أن أعرف نتائج الجراحة كنت قد قررت أن الوقت قد حان لمراجعة حياتي كلها ولقطف ثمرة هذه المحنة في طاعة الله وجاءني الطبيب وأبلغني بزوال الخطر وبأنني أستطيع أن أواصل حياتي الطبيعية دون خوف، وابتهجت بذلك كثيرا.. وتذكرت ديني لربي بالوفاء له بالعهد.. فكان قراري الأول هو أن غادرت المستشفى الأجنبي الذي دخلته بملابس أوروبية «بالحجاب» ورجعت إلى بيتي وبناتي وأنا على قيد الحياة واعتبر كل يوم من عمري صدقة منحها الله لي بفضله وكرمه وأرجوه أن يطيل في حياتي لكي أربي بنتيّ على طاعته.

وأصبحت أقدر الحياة حق قدرها ووضعت مشاكلي في حجمها الطبيعي، ورأيت أنني ما دمت بين بنتيّ وأستطيع خدمة نفسي بنفسي، فهذه هي السعادة التامة.

وأنه من الجحود لنعمة الله ألا يرضى الإنسان بحياته بسبب ما يعانيه من قلة الرزق أو عدم التوفيق في الحياة الزوجية، إذ ماذا تعني مثل هذه المشاكل بالقياس إلى محنة كمحنة هذا المرض الخطير.. وهل لابد أن نبتلى بالمرض لكي نعرف ونقدر ما نحن فيه من سعادة؟.

لقد راجعت حساباتي بعد أن استقرت حالتي ووجدت أن حياتي قد تغيرت إلى الأفضل وأن علاقتي بكل من حولي قد تحسنت وأنني قد سعدت بالسلام النفسي والثقة بالله والرضا بقضائه وقدره وأدركت أن لي ثروة من الأهل والأحباب، الذين غمروني بمشاعرهم وأفضالهم خلال محنتي، ولا يتسع المجال هنا للإشادة بما قدموه لي ولزوجي في الداخل والخارج، ولو فعلت لاحتجت إلى صفحات وصفحات أتحدث فيها عن صديق زوجي الذي بادر بالاتصال بالمستشفى الأجنبي دون طلب منا وحجز لنا تذكرتين للسفر وصمم على أن نقيم في شقة صديق له بالعاصمة الأوروبية لمتابعة العلاج بعد الجراحة، أو هذا المصري الذي يقيم هناك ولم نكن نعرفه من قبل وأصر على أن نقيم في بيته الصغير مع أسرته، أو هذا الرجل الصالح العالم الذي أتبرك به وزوجته الفاضلة واللذين يتصلان بي يوميا داعيين لى بالشفاء.. أو هذا الرجل صديق أبي الذي أراد أن يخفف عني فأهداني كتاب «سيدات بيت النبوة» لأطلع على ابتلائهن أو هذه الصديقة التي كانت قد انقطعت عني وعلمت بمحنتي، فاتصلت بصديقة لنا تستأذن في السؤال عني، أو هاتين الصديقتين اللتين كانت أخبارهما قد انقطعت عني، فإذا بهما تظهران فجأة لكي تخففا عني، ناهيك عن موقف أختي وأبي يرحمه الله وأمي وإيمانها العميق ودعائها المستمر لي.

لقد وقف الجميع معي بالدعاء والتثبيت والتشجيع وأحاطوني بحبهم ورعايتهم.. فكيف أشكو.. ولا أشكر وكيف اعتبر ما تعرضت له ابتلاء وقد كان فضلا من الله ونعمة وتذكيرا لي بما أنعم عليّ به ربي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يبدو أننا نحتاج بالفعل لمن يذكرنا بقيمة الحياة لكيلا تستغرقنا مشاكلنا الصغيرة وصراعاتنا التافهة، فتشغلنا بعض الأحيان عن إدراك قيمة الحياة وتقديرها حق قدرها.

ومن المفارقات الإنسانية القديمة إننا قد لا ندرك أحيانا قيمة ما يحيط بنا من أسباب السعادة والرضا والابتهاج بالحياة إلا ونحن نتسمع أنغام الرحيل الحزينة فنهتف كما هتفت الجدة العجوز في رواية «عالم صوفيا» للكاتب النرويجي دوستن جار در حين انبأها الطبيب بمرضها مرض الموت : الآن فقط أدرك روعة الحياة وجمالها!

ولقد تساءلت الطفلة صوفيا في هذه الرواية الفلسفية: أليس من الظلم أن يموت الإنسان؟ ثم راحت تتأمل الفكرة فما أن تقبلتها وسلمت بها حتى أدركت أكثر من

أي وقت مضى: أية نعمة كبرى تنعم بها وهي تتردد فيها أنفاس الحياة، وأدركت هي أن الحياة تحيل إلى الموت.. والموت يحيل إلى الحياة وأننا لا نستطيع أن نشعر بقيمة الحياة إن لم نفكر أيضا في أننا سنموت ذات يوم لأننا لا نملك حين نفكر في الموت إلا أن نشعر بروعة المعجزة الأخرى الخارقة وهي أننا ننعم بالحياة!

ولقد أحلت يا سيدتي محنتك المرضية و «فكرة الموت» إلى دافع جديد للحياة بطريقة أفضل. وأدركت «روعة الحياة» والعمر ممتد أمامك بإذن الله لكي تحققي خلال رحلة العمر ما تنبهت إليه خلال مراجعتك لحياتك السابقة، وتنهضي إلى الطاعات وتستثمري حياتك في تحقيق السعادة لك ولمن حولك.. وفي إضاءة عالمك الصغير بالمثاليات والقيم الدينية والأخلاقية والعلاقات الإنسانية النبيلة، مستفيدة من عبرة المحنة في الالتفات إلى الأشياء الجديرة حقا باهتمام الإنسان وسعيه إليها.. وفي التغاضي عما لا يستحق العناء من أجله أو الوقوف أمامه بلا طائل من صغائر الحياة، فكأنما قد أضفت إلى عمرك وخبرتك بالحياة عمراً آخر أو أكثر وتعاملت مع الحياة والوجود بمنطق أرقى من منطق البحارة القدامى الذين يقول عنهم المثل الإنجليزي إنهم لا يعرفون الله إلا ساعة الغرق. ومن يعرف الله في غير أوقات المحن يجده إلى جواره يجيب دعوة الداعي إذا دعاه في كل الأوقات، ويحظى بالحياة الآمنة، وبالسلام النفسي في ظلال طاعته.. ويشعر بجدوى حياته وقيمتها وهو يطبق ذلك النهج البسيط الحكيم الذي يحقق التوازن المطلوب بين الاحتفاء بالحياة والاستعداد للرحيل الأبدي، الذي نصحنا به إمام المتقين علي بن أبى طالب : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

فثقي بربك ونفسك ويومك وغدك يا سيدتي، واستمتعي بحياة فاضلة مديدة بإذن الله.. وترجمي شكرك لربك على ما أنعم به عليك من نعم بتنشئة طفلتيك على طاعته والالتزام بحدوده والإيمان بخيرية الحياة.

وشكراً لك على رسالتك هذه التي تذكرنا بما قد تشغلنا عنه في بعض الأحيان شواغل الحياة وأمواجها المتلاطمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهوة الانتقام!

أكتب إليك هذه الرسالة لأروي لك عن المشكلة المؤلمة التي أعيشها يوميا.. فأنا مدرسة أطفال في مدرسة ابتدائية، وأحب أطفالي كثيرا، ولكنني أرى الألم والمرارة التي ترتسم على وجوه مجموعة من هؤلاء الأطفال الذين انفصل آباؤهم وأمهاتهم بالطلاق، وأصبحوا في حضانة الأم.. إذ أرى أمامي حربا شعواء تشنها الأمهات، لا أقول على الآباء ولكن على الأبناء، فالأم تبذل قصارى جهدها حتى لا يرى الأبناء آباءهم، والأب يجاهد لكي يرى أبناءه بكل الطرق الودية التي لا تضر بنفسية الصغار، ولكن الأم وللعجب الشديد لا تهتم بنفسية هؤلاء الصغار ولا تكترث بعذاباتهم في سبيل شفاء غلها الشخصي من الأب.

وهنا يلجأ الأب إلينا في المدرسة ليرى أبناءه خلسة من الأم، فأرى في وجوه هؤلاء الصغار السعادة والبهجة واللهفة لرؤية أبيهم المحرومين منه بفرمان الأم.. وأجد الأب يفيض عليهم بالعطف والحنان الذين هم في أمس الحاجة إليه، وأسمع بينهم حواراً ينفطر له قلبي.

«عايزين يا بابا نتفسح معاك زي أصحابنا»، فيرد الأب «ياريت يا ولاد.. خذوا إذن ماما وبلغوني، وأنا أعدي عليكم أفسحكم »، فيرد الأطفال بأسى شديد «ماما لا ترضى أن نشوفك أو نكلمك في التليفون»، فيحتار الأب في الجواب ولا يجد ما يرد به على أطفاله سوى الدموع!! ناهيك عما ذكره الصغار مما لقنته لهم الأم من أقوال مسمومة عن أبيهم.

وعندما تعلم الأم برؤية الصغار أبيهم في المدرسة، فإنها تأتي إلينا، وهي تتميز غيظا لفشل حظها في حرمان الصغار من أبيهم، وتدخل معنا في نقاش حاد لسماحنا بذلك.. وقد حاولت مرارا وتكرارا أنا والاخصائية الاجتماعية أن نجلس مع الأم نوضح لها مدى الضرر النفسي الذي يعانيه هؤلاء الأطفال وكيف أنه ينعكس عليهم في عنفهم مع أقرانهم، وفي تخلفهم الدراسي الواضح وحزنهم المستمر.. إلا أن الأم وللعجب الشديد مرة أخرى لا يعنيها ذلك من قريب أو بعيد، وإنما تسترسل في سرد ما فعله هذا الزوج معها في سالف الأيام، وكيف أنه كان وكان وكان وينتهي الحوار بيننا بغير أن تهتز للأم شعرة واحدة لما سردناه عليها من معاناة أبنائها! حتى لو لم يتفق الأب والأم كزوج وزوجة ووقع بينهما ما صنع الحداد، فما ذنب الصغار في أن تستخدمهم الزوجة غالبا كأداة حرب ضد هذا الزوج؟..

وعلى الجانب الآخر، فإنني أرى آباء وأمهات انفصلوا عن بعضهم البعض لكنهم يضعون مصلحة الأولاد فوق اعتباراتهم الشخصية، فالأم الحاضنة لا تقول للأولاد عن أبيهم إلا كل خير.. وكذلك الأب، كما أن الأم تسمح للصغار بأن يرتووا من حنان الأب وعطائه فينشأون في اتزان نفسي وعاطفي بالرغم من أن الأبوين قد حدث بينهما من المشاكل ما أدى إلى الطلاق ومن خبرتي مع هؤلاء الأمهات من النوع الأول، فإنه لن تجدي معهن الدعوة بالحسنى لحثهن على الرحمة بأبنائهن

لذلك أرجو أن تتبنوا هذه القضية التي تمس قطاعا عريضا من صغارنا بالتوجه لأولي الأمر وواضعي القوانين أن يكونوا أرحم على هؤلاء الصغار من أمهاتهم اللاتي أعمتهن الرغبة في الانتقام من الأب عن رؤية مصلحة الصغار، إذ يجب وضع قانون يعطي الأب حق مصاحبة أطفاله (ولا أقول مجرد رؤيتهم) يومين على الأقل أسبوعيا حتى يحصل الأطفال على الاتزان النفسي والإشباع العاطفي الذي يجعل منهم رجالا ونساء أسوياء بدلا من أن ينشأوا وهم يعانون الاضطرابات النفسية ما يتعذبون به ويتعذب به المجتمع معهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض الأمهات الحاضنات، وكذلك بعض الآباء الذين ينفردون برعاية الصغار دون أمهاتهم، يتعاملون مع شركاء الحياة السابقين بمنطق العبارة القديمة للشاعر الأغريقي هوميروس التي تقول : الانتقام أشهى من العسل!

والمؤسف حقا هو أنهم في استغراقهم في شهوة الانتقام من شركاء الحياة السابقين ينسون، عامدين أو غافلين، مصلحة هؤلاء الصغار الذين ينفذون من خلالهم انتقامهم الخسيس من شركائهم السابقين.. ولا يتوقفون لحظة عن طلب هذا «العسل الشهي» بغض النظر عن أثره السام على معنويات الأبناء وتكوينهم النفسي فكأنما ينتقمون من الحياة، وليس من شركائهم السابقين بتقديم المزيد إليها من الأشخاص المرشحين للانحراف السلوكي أو النفسي في قادم الأيام.

فهل تستحق شهوة الانتقام هذا الثمن الباهظ الذي يدفعه الصغار من سعادتهم وتكوينهم النفسي وشخصياتهم.. ويدفعه المجتمع فيما بعد من معاناته مع غير الأسوياء من أفراده؟

إن رسالتك تثير قضية مؤلمة.. والأكثر إيلاماً هو أن ما نحتاج إلى قانون لتنظيمه هو حق مصاحبة الأبناء وليس فقط رؤيتهم. ولقد كان يكفي لإقراره فقط الفطرة السليمة لدى الأمهات والآباء والرغبة المشتركة في خير الأبناء بغض النظر عن تاريخ الصراع السابق بين الفريقين.. فكيف تتراجع الفطرة السليمة.. التي أودعها الله سبحانه وتعالى قلوب الأمهات والآباء.. أمام هذا الحاجز الشيطاني من الرغبة الضارية في الانتقام من الآخرين إلى هذا الحد؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبواب الجحيم

أشعر بحرج شديد وأنا أكتب لك هذه الرسالة، لكني أحتاج بشدة إلى مشورتك في أمر لا أستطيع أن أستشير فيه من هم حولي من الأهل والأصدقاء.. فأنا رجل تخطيت الستين من العمر ببضع سنوات.. وأعمل عملا مهنيا خاصا يوفر لي مستوى كريما من الحياة.. وقد بدأت رحلتي في الحياة العملية عقب تخرجي في كلية مرموقة.. فعملت خارج مصر بضع سنوات، وراسلت خلال عملي إحدى الجامعات الغربية للدراسة بها.. وسافرت إليها للحصول على الدبلوما وحصلت عليها في زمن قياسي، وخلال وجودي في تلك الدولة الغربية تعرفت على فتاة عربية تعيش مع أسرتها هناك، وشعرت بالانجذاب إليها، فتقدمت للارتباط بها بالرغم من الفوارق الاجتماعية والثقافية بيننا، إذ كانت من أسرة بسيطة اجتماعيا، ولم تحصل على أي شهادة.. لكني سعدت بها وآليت على نفسي أن أعلمها كيف تتكلم.. وكيف تتصرف في المجتمعات الراقية.. إلخ

وكانت تستجيب لإرشاداتي لها وتلتقط خبرة التعامل والتصرف سريعا، ورجعت إلى بلدي واستقررت به لفترة، ثم رحلت إلى دولة خليجية للعمل هناك في مجال حر وأمضيت عامين حققت خلالهما قدرا لا بأس به من النجاح.. وعدت إلى مصر وبدأت نشاطي المهني في بلدي.. واستقرت بي الحياة فيها.. وأنجبت من زوجتي هذه ولدين تقدما في مراحل التعليم. وحققت في عملي نجاحا كبيرا، وانتقلت بأسرتي إلى شقة فاخرة.. واشتريت شقة جميلة في المصيف. واكتملت لي ولزوجتي كل أسباب السعادة.. ورضيت عن حياتي معها، فهي دائما لطيفة وجذابة ومجاملة.. وملبية لكل احتياجاتي، وتشبعني عاطفيا وحسيا، وأنا لا أبخل عليها بشيء وأوفر لها كل أسباب الحياة المريحة.. واصطحبها في الصيف في رحلتي الخارجية إلى أوروبا.. وأقدمها للمجتمعات الراقية.. وأزور معها بيوت الأهل والإخوة والأصدقاء، فتستقبل منهم بحفاوة شديدة وتحقق لديهم رصيدا فوريا من الحب والإعجاب برقتها وخفة ظلها وروحها المجاملة للجميع بلا استثناء، كما أغدقت عليها بالمال والهدايا والملابس الفاخرة.. إلى حد أنني كنت أشعر أحيانا بالحرج من ارتدائها للفرو الثمين الذي لا تملك مثله شقيقاتي، وبصفة عامة فلقد كانت الحياة معها سعيدة وجميلة.. ولا وجه للشكوى منها اللهم إلا في بعض المرات التي لاحظت عليها فيها بعض التصرفات غير اللائقة، فكنت أعاتبها فيها، فتدافع عن نفسها وتنكرها في البداية ثم لا تلبث تحت الضغط عليها أن تقر بها وتعتذر عنها وتعدني بعدم تكرارها، كميلها للتبسط الزائد على الحد أحيانا مع بعض أصدقائي، أو خروجها وحدها خلال سفري في أعمالي وتأخرها عن العودة للبيت.. إلخ. أو لجوئها للكذب في مواقف كثيرة تجنبا للومي وعتابي.. إلخ، وكنت أعزي هذه التصرفات الصبيانية إلى نشأتها في الغربة في وسط عائلي واجتماعي بسيط وأتجاوز عنها بعد اعتذاراتها عنها وملاطفتها لي لكي أصفح عما حدث، ونواصل حياتنا بسلام.

ثم تكررت هذه التصرفات الصبيانية في السنوات الأخيرة وكثرت وبدأت أشعر بالقلق تجاهها.. وأحاول طمأنة نفسي بأن الولدين قد كبرا ودخلا دور الشباب، ولابد أن تحترم أمهما وجودهما في حياتها، وتكف عن مثل هذه الصغائر، إلى أن جاء الصيف وسافرت بأسرتي إلى المصيف وأمضيت معها بضعة أيام من السعادة الخالصة، ثم تركت الأسرة في المصيف لقضاء شهري يوليو وأغسطس ورجعت إلى القاهرة لممارسة عملي.. فلم تمض سوى أيام حتى فوجئت بابني الشابين يأتيان إلى في القاهرة بمفردهما مضطربين وشاحبي الوجه وينفردان بي بالمسكن ثم يرويان لي وهما يرتجفان أنهما قد تأكدا بالملاحظة والمراقبة أن أمهما تتردد خلسة على مسكن جار أعزب لنا في عمارة المصيف، وأنهما حاولا أن يكذبا عينيهما دون طائل، بعد أن راقباها أكثر من مرة.. ولا حظا عليها كثرة المكالمات التليفونية المريبة.. والهمس المتكرر بينها وبين شغالة الأسرة، التي تجمعها بها صداقة غريبة تثير التساؤلات، فلم يجدا ما يفعلانه بعد أن ضاقت بهما السبل سوى تركها في المصيف ووضع الأمر بين بيدي.. وصعقت لما سمعته من الابنين.. وشعرت بالدم ينسحب من عروقي.. لكني حاولت على الرغم من ذلك أن أهدىء من روعهما بقدر الإمكان وطلبت منهما البقاء في القاهرة، ثم نهضت وارتديت ملابسي وركبت السيارة إلى المصيف وبلغته في العاشرة مساء ودخلت شقتنا، فلم أجد لزوجتى أثرا.. وسألت عنها الشغالة، فارتبكت ولم تجد جوابا. فصعدت للدور العلوي الذي تسكن به أسرة صديقة لنا عسى أن تكون في زيارتها، فقابلني رب الأسرة وأبلغني أن زوجته وأبناءه في القاهرة منذ أيام وهو يقيم بالمسكن وحيدا ولم تأت زوجتي إليه بالطبع لعدم وجود زوجته. فلم يبق سوى الشقة الأخرى في الدور الأعلى التي يقيم فيها ذلك الجار وحيدا، وفكرت في أن أطرق عليه الباب وأسأله عن زوجتي، لكني تراجعت عن ذلك على أمل أن تكون في مكان آخر، فأوفر على نفسي الموقف الحرج والفضيحة المدوية ورجعت إلى شقتي، فأخرجت مقعدا وجلست أمام بابها أنتظر لأرى هل ستأتي من أسفل فتكون خارج العمارة كلها، أم ستهبط من أعلى فتصدق الظنون ويتأكد الاتهام.. ومضت الساعات ثقيلة إلى أن سمعت صوت خطوات تقترب في الثانية والنصف صباحا وتعلق أملي اليأس بأن تكون قادمة من أسفل.. فإذا بالزوجة المصون أم الشابين اللذين يدرسان بالجامعة تهبط من أعلى وتراني في موضعي، فتصاب بالذهول للحظات.. ثم تحاول تمالك نفسها على الفور وتفتعل المرح والدهشة لعودتي غير المتوقعة وأمسك بيدها وأسحبها إلى داخل الشقة وأسألها : أين كنت حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟..

فتجيب في غير اضطراب أنها كانت في زيارة الأسرة التي تسكن فوقنا.. وكيف أن ربة هذه الأسرة قد تمسكت بها طوال السهرة لكي تسليها في غياب زوجها!!

ولم أتمالك نفسي حين سمعت ذلك وانهلت عليها ضربا وركلا، وطلع علينا النهار ونحن على هذه الحال، ووصل الابنان من القاهرة، فظللت ثلاثة أيام عصيبة استجوبها عما حدث واسترجع كل العلامات المرئية التي كنت ألاحظها في السنوات السابقة، وأخذها لسوء الحظ على محمل سليم، وصعدنا أنا وأبنائي إلى

مسكن ذلك الجار الأعزب. وأوجعناه ضربا.. فلم يجرؤ على أن يشكونا إلى الشرطة.

وانتهى الاستجواب بأن اعترفت بأنها كانت بالفعل في مسكن هذا الجار لكن «شيئا» لم يحدث بينهما، وإنما جلسا في الشرفة يتبادلان الأحاديث البريئة حتى ذلك الوقت المتأخر!!

وحزمت أمري، فاتصلت بأسرتها في المهجر البعيد وطلبت منها إرسال تذكرة السفر لابنتهم لأنني سأعيدها لهم، ولن أدفع لها حتى ثمن التذكرة، وفوجئت بها تقول لي في بساطة : ولماذا أطلب منها السفر وقد اعترفت بخطئها وانتهى الأمر؟!.. وأجبتها لما ينبغي لمثلها أن تعرفه وهو أنها أم غير أمينة على شرف زوجها وأبنائها وأن وجودها خطر على معنويات هؤلاء الأبناء وأخلاقياتهم.

وسافرت إلى أهلها وهي تأمل في العودة في أقرب وقت بعد هدوء العاصفة، وراح ابني الأكبر وهو شاب مستقيم وعاقل يستجوب الشغالة عن كل شيء من أمر أمه وأمرها معها خلال السنوات الماضية، فإذا بها تفتح علينا أبواب الجحيم.. وتكشف لنا عن أهوال تقشعر لها الأبدان، فتروي عنها العديد من «المغامرات»، التي كانت طرفا فيها أو أطلعتها عليها سيدتها أو طلبت مساعدتها في التستر عليها، وإذا بي اكتشف أن السيدة التي أغدقت عليها الحب والعطاء ورفعتها إلى مستوى اجتماعي لم تكن تحلم به كانت طوال سنوات ماضية تعبث بشرفي وتخوض مغامرات حقيرة لا تفرق فيها بين شاب في الثامنة والعشرين من عمره وبين رجل مسن فوق السبعين من عمره، وإذا بهذه الشغالة اللعينة تعترف بعلمها بثماني علاقات لزوجتي المصون مع رجال مختلفين في القاهرة والإسكندرية، بعضهم تعرفت عليهم خلال رحلة السيارة ومعها الشغالة إلى المصيف، وتبادلت معهم أرقام التليفونات.

وأنهرت رغم محاولتي التماسك أمام ابنيّ.. ووجدت التفسير لبعض الأحداث المحيرة خلال رحلة حياتي مع هذه السيدة، وتذكرت يوم التقيت بصديق حميم لي في محل عام ومعي زوجتي.. وكيف لاحظت بعد قليل أضطرابه وعلامات الدهشة والاستنكار تعلو وجهه وهو ينظر في اتجاه زوجتي.. وكيف شككت وقتها في أنها كانت تشير إليه من وراء ظهري أو تغمز له بعينها، ولم أجد دليلا على ذلك وخاصة أن هذا الصديق قد قاطعنا عائليا بعدها ولم يعد يظهر في مناسباتنا.

كما تذكرت أيضا كيف كنت أجلس مع صديق آخر وكل منا معه زوجته نتناول طعام العشاء، فإذا بهذا الصديق بعد قليل يصيح في زوجته طالبا منها الكف عن ركل ساقه أسفل المائدة، وإذا بزوجته تنفى بشدة أنها فعلت ذلك!

وتذكرت.. وتذكرت.. وتذكرت.. وعجبت كيف رضيت لي هذه السيدة بكل هذا الهوان، وأنا الذي أخلصت لها الحب وأجزلت لها العطاء وأحسنت معاملتها على مر السنين.. ماذا كان ينقصها.. وقد كانت ملبية دائما لندائي وتبدو سعيدة بحياتها معي ومبتهجة دائما.. وتكره النكد ولا تكف عن الضحك وإثارة المرح في حياتنا.

لقد طلقتها وأنا حزين على نفسي.. وأتساءل : كيف تخفي السعادة وراءها كل هذا الجحيم؟

وفوجئت عقب طلاقي لها بلوم الأهل وكثيرين من المعارف لي على طلاقها، وقد كانت كما بدت لهم دائما السيدة الودود المحبة لزوجها وأبنائها والمجاملة لأهله ومعارفه.. واللطيفة دوما مع الجميع وعقلت لساني في فمي.. فلم أجب عن هذه التساؤلات المستنكرة.. وكيف لي أن أجيب عنها.. هل أقول لمن يلومني إنني قد اكتشفت لزوجتي السابقة علاقات شائنة ب ٨ رجال هم من اعترفت عليهم شغالتها المخلصة وكاتمة أسرارها.. وإن الله وحده هو الذي يعلم عدد الآخرين خلال 24 سنة من الزواج؟

هل أقول لهم إنها كانت تغازل أصدقائي وأنا أجلس إلى جوارها.. وترجع للوراء لكي تغمز لهم بعينها.. أو تمد ساقها لتركل بها ساق من ترغب في مناوشته أسفل المائدة.

هل أقول لهم إنني اصطحبتها معي في رحلة إلى إحدى الدول الأوروبية وأقمنا في فندق صغير، فشككت في أنها تغازل موظف الاستقبال الذي لا يزيد عمره على ١٨ عاما.. وأنا واقف معها أمامه، وأنه كان يبادلها الإشارات المختلسة؟!

لقد طويت صدري على همي وأملت في أن تندمل جراحي مع الأيام، وكان أكثر ما يثير حيرتي هو : كيف تنطوي مثل هذه الشخصية على هذا التناقض العجيب بين لطفها معي وحرصها على إرضائي كزوج وعبثها بشرفي وامتهانها لكرامتي في الوقت ، لقد مضى الآن عامان على هذه الكارثة وما برئت بعد من كل الجراح، واعترف لك بأنني قد شعرت بفراغ هائل في حياتي بعد رحيلها لولا أنني احتضنت ابنيّ والتمست لديهما العزاء والتعويض عما لقيته من هذه السيدة، وهما يرفضانها رفضا قاطعا ونهائيا ويزجرانها حين تتصل بهما تليفونيا ويطلبان منها عدم معاودة الاتصال ولا يستجيبان لمحاولاتها لاستعطافهما لكي ترجع إليهما أو تراهما.. ويكدرانها كل مرة بما فعلت بهما وبكرامتهما وسمعتهما ووضعهما أمام أصدقائهما وزملائهما.

وبالرغم من كل ذلك، فإنها لم تيأس بعد.. ومازالت تتصل بنا وتلح، وفي كل مرة أنبهها إلى عدم معاودة الاتصال، وأبصر ابنيّ بما تمثله من خطر على حياتهما وسمعتهما ومستقبلهما وصورتهما أمام أصهارهما في المستقبل حين يرتبطان بشريكتيّ الحياة.. إذا ظهرت أمامهما بمظهرها العابث اللاهي، وواصلت عبثها ومغامراتها في المحيط العائلي، وهما يتفقان معي في ويغالان في التمسك برفضها، غير أن ابني الأصغر وهو شاب متدين يؤرقه ضميره الديني بشأن مسألة رفض الأم وقطع كل صلة بها.. ويسألني ألا يدخل ذلك في باب قطع الرحم الذى نهانا عنه الله.. وهو أكثر إصرارا من شقيقه على رفض أمه، لكنه يتساءل : ألا من صيغة لا تعرض الأبناء لغضب ربهم عليهم وتحميهم في نفس الوقت من وجود مثل هذه الأم في حياتهم؟

لقد اتفقنا على أن نستشيرك في ذلك أما بالنسبة لي أنا شخصيا.. فإن ابني يملأن حياتي الآن وأشعر بالرضا عن كل شيء في الدنيا وأنا معهما.. ولكن ماذا عن المستقبل حين يستقلان بحياتهما عني.. وتخلو الحياة عليّ وحدي وماذا تقول لنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

زوجتك السابقة يا سيدي شخصية مريضة بانحراف نفسي خطير يجعل منها بالفعل خطرا داهما على معنويات أبنائها وأخلاقياتهم.. فهي ليست مجرد زوجة ضعفت عاطفية ذات مرة أمام أحد الرجال، فتناست واجباتها تجاه زوجها وأبنائها وانساقت وراء أهوائها، فطلبت الطلاق من زوجها لتتزوج ممن أحبت آملة أن يتجاوز أبناؤها الشباب الصدمة بعد حين، وتستعيد علاقتها الأمومية معهم، وإنما هي شخصية سيكوباتية منحرفة تطلب متعتها العارضة من أي سبيل ودون الوقوف أمام أية اعتبارات دينية أو أخلاقية أو اجتماعية، والشخصية السيكوباتية شخصية تبحث عن الإثارة اللحظية والنشوة الفورية.. وقد تتمثل هذه «النشوة» لديها كما حدث مع زوجتك السابقة في مجرد التلذذ بالشعور بإحساس المغامرة والمخاطرة والخوف من انكشاف أمرها وهي تغمز لرجل غريب يجالس زوجها.. أو وهي تدعوه لمغازلتها بركل ساقه خفية من تحت المائدة، ومن سمات هذه الشخصية إدمان الكذب وإهدار حقوق الآخرين وكسر القوانين والأعراف السائدة وخيانة أقرب الناس إليها والتعثر في الدراسة غالبا.. وتعدد العلاقات غير المشروعة في حياتها ومعاودة ارتكاب نفس الأخطاء بلا أدنى ندم على التجارب السابقة.. ولا أدنى تبصر لعواقبها عليها وعلى من ترتبط بها حياتهم، فهي شخصية لا ترد نفسها عن رغبة وتعجز عن التحكم في اندفاعاتها أو نزعاتها شبه القهرية.

ولأنها شخصية شبه وثنية، فلا أثر تقريبا للقيم الدينية والأخلاقية عليها وليس هناك حدود لما يمكن أن تقدم عليه من أفعال وتصرفات.

ولا شك في أنك قد تأخرت كثيرة في اكتشاف انحرافها الخطير هذا، والاكتشاف المتأخر للمرض يضعف الأمل في الشفاء إذا كان ثمة شفاء لمثل هذه الحالة.. إذ لا يشعر المنحرف فيها بالندم غالبة على ما يفعل، وإن شعر به في بعض الأحيان، فلفترة مؤقتة ثم يستجيب بعدها لنوازعه ورغباته من جديد، وقد يكون ندمه في أحيان أخرى على «انكشاف أمره» وليس على ما ارتكب من خطايا وأخطاء أدت به إلى هذا الوضع.. فكأن ندمه في هذه الحالة هو «ندم مهني» على عدم إجادة «الصنعة» بحيث لا تنكشف الأخطاء وليس على اختيار الطريق الخاطىء أصلا في الحياة.

فأما التناقض الذي تتعجب له بين عبث هذه السيدة بشرفك وبين إسعادها لك وتلبيتها لندائك وابتهاجها بالحياة معك طوال سنوات الرحلة، فلأن الشخصية السيكوباتية نوعان : نوع شرس مصادم للآخرين يكسر القوانين والأعراف بشكل

ظاهر ويسميه علماء النفس بالسيكوباتي الغبي.. ونوع آخر ناعم يتوسل إلى تحقيق رغباته بالذكاء والدماثة الظاهرية.. ورقة التعامل مع الآخرين وبإجادة فن الإقناع على الرغم من كذبه الدائم ويسميه علماء النفس بالسيكوباتي المبدع.. وكلاهما شخصية مضادة للمجتمع ولا عهد لها ولا وفاء.. ولا شفاء أيضا من أدرانها إلا بالعلاج الطويل المرهق الذي لا يؤتي ثماره إلا إذا توافرت الرغبة الصادقة لدى السيكوباتي في الشفاء وهو ما لا يتحقق إلا نادراً.

وفي حالة زوجتك السابقة بالذات، فإن من تتملكها مثل هذه الرغبة العارمة في الاستمتاع بمتع الحياة بلا سدود ولا قيود أخلاقية ودينية، قد يفيض إناؤها الممتلىء ببعض ما فيه على من حولها وقد تطلب السلام في حياتها الخاصة لكي تتجنب القيود التي تعوق انطلاقها لممارسة نزواتها وتتفادى المنغصات التي تتعارض مع رغباتها في الاستمتاع بالحياة ويعينها على تحقيق هذا الهدف إدمانها الكذب وإجادتها لفن الإقناع، ولقد ذكرني ما رويت عن اصطفائها لخادمتها لكي تبوح لها بأسرارها المشينة وتستعين بها على كتمانها بما قاله الأديب الأيرلندي أوسكار وايلد من أن «كل امرأة تود أن يكون لها سر تتقاسمه مع من تصطفيه وتوصيه بكتمانه».. وهو قول قد يصدق على بعض النساء والرجال لكنه لا يصدق بكل تأكيد على الفضليات من النساء اللاتي لا أسرار لهن ولا خوف عليهن من انكشاف أمورهن.

وهذا ما حدث في حياتك طوال السنوات الأربع والعشرين الماضية، التي كانت كما تقول في رسالتك من سنوات «السعادة الخالصة»! ولعلها لو كانت عكس ذلك، لأعانك هذا على التوقف أمام التجاوزات المنذرة بالخطر التي لاحظتها عليها في مرات عديدة سابقة ولم تسمح لك هي بنعومتها و«إبداعها» السيكوباتي بتقديرها حق قدرها.. والتصرف في حياتك على أساس هذا التقدير، فضلا عن أن علماء الزيولوجيا «علم الحيوان» يقولون لنا إن أكثر أنواع الحيات نعومة في جلودها هي أكثرها أيضاً سمية وخطراً على حياة الغير!.. ونأتي في النهاية إلى تساؤل الابن الأصغر عن قطع الرحم وأقول له مشفقاً عليه مما يعانيه من تمزق وإحساس مؤلم بجرح الكرامة كشاب اهتزت أمامه بعنف صورة الأم، إن الله عز شأنه الذي فرض للأم حقوقها الكاملة على أبنائها ورفعها إلى منزلتها العالية في نفوسهم وعقولهم وضمائرهم، هو أيضا سبحانه وتعالى من فطرها في نفس الوقت على حب أبنائها والرفق بهم والحدب عليهم وطلب سعادتهم وإعلاء مصلحتهم فوق كل اعتبار لديها، فإذا أخلَّت مثل هذه الأم بواجباتها الدينية والأخلاقية تجاه أبنائها وانطلقت في الحياة تطلب متعها من أي مورد كما يفعل الوثنيون الذين لم يعرفوا دينا ولم تصلهم رسالة سماوية، فلقد خرجت إذن عن فطرتها التي فطرها الله عليها وأنزلت هذه الأم نفسها بيدها عن عرشها ورضيت بما تدهورت إليه من الدرك الأسفل.. ولا يحق لها كثيراً أن تتباكى على وفاء أبنائها لها.. لأنها لم تف هي لهم من البداية بحقوقهم عليها.

وإذا كان الأمل ضعيفة بالفعل في أن تستجيب هذه السيدة لأي علاج نفسي منتظم، لأنها كما فهمت من رسالتك ترفض الاعتراف بحاجتها إليه. ولن تصبر على عنائه

لعام طويل

على الأقل وربما لعامين.. فليكن إذن قربانها لأبنائها لكي يصفحوا عما فعلت بهم ويتعالوا على كرامتهم الجريحة كرجال هو أن تندم ندماً حقيقياً وليس مزيفاً على نهجها السابق في الحياة وأن تنتظم في العلاج النفسي حيث تقيم وتلتزم بالقيم والفضائل في حياتها الشخصية، فيكون ذلك مدخلا مقبولا لأن يصلها أبناؤها ويترفقوا بها.. أما أن تصر على مواصلة سيرتها في الحياة كما هي وتطلب من أبنائها الرفق والرحمة.. فالرد عليها في مثل هذه الحالة هو : ولماذا لم ترحم هي أبناءها الشباب وتحفظ عليهم كرامتهم ورجولتهم وسمعتهم ومكانتهم بين أقرانهم وهي تغوص في بحر الخطيئة بلا ندم؟ إن بعض الصوفية يقولون إن «حرارة القلوب تذيب الذنوب» وحرارة القلوب هنا هي الندم الصادق الحقيقي والرغبة الطاغية في التطهر من الإثم، فلتثبت هي أولا «حرارة قلبها » لكي تستحق بذلك عطف أبنائها، وليرح ابنك الأصغر ضميره مما يؤرقه فما ظلم أمه هو أو شقيقه وإنما كانت هي من ظلمتهما كما ظلمتك وظلمت نفسها.. «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» [آل عمران:182].. صدق الله العظيم.. ولو لم يكن سقوط اعتبار مثل هذه الأم في نظر أبنائها هو العائد الطبيعي لمثل هذا الانحراف الشائن، فأي رادع آخر يمكن أن يردعها عن غيها ما دامت لا تخشى الله واليوم الآخر؟

إنني أطالب أبناءك فقط بألا يزجروا أمهم حين تتصل بهم رعاية لحدود ربهم وليس رعاية لها وأن يجيبوا مكالماتها بتحفظ مهذب ويتمسكوا برفض مجيئها إليهم أو سفرهم إليها كما تطلب، إلى أن تقدم هي ما يثبت لهم أنها قد أنكرت سيرتها السابقة في الحياة وعدلت عنها، ولا بأس أن يتبادلوا معها كلمات التحية المقتضبة في الأعياد والمناسبات، قربى لربهم وإعانة لها على إصلاح نفسها، أما ظهورها في حياتهم الآن ولما تبرأ بعد من انحرافها، فليس من المستحب لهم بالفعل حرصا على معنوياتهم وأخلاقياتهم وفرصهم العادلة في السعادة والارتباط بشريكات الحياة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السؤال الأهم

قررت أن أكتب لك منذ عدة سنوات وها قد شاءت الأقدار لي أن أكتب لك الآن، فأنا سيدة في الثالثة والثلاثين من عمري ارتبطت وأنا صبية في سن الرابعة عشرة عاطفيا بفتى يماثلني في السن ومن جيراننا.. ولم تتجاوز صلتي به في البداية النظرات والإشارات إلى أن تبادلنا الاعتراف بالحب وتعاهدنا على أن يكون كل منا للآخر مهما طال الزمن، واستمرت علاقتنا العاطفية ثماني سنوات كاملة ثم تقدم فتاي لأسرتي طالبا يدي ورفضته الأسرة في البداية بسبب تقارب السن، ثم رضخت في النهاية لرغبتي وتمت الخطبة وأنهينا دراستنا.. وعمل خطيبي وعملت أنا أيضا.. وتم الزفاف بعد قصة الحب الطويلة التي تملكتني منذ صباي، وبعد بضع سنوات من الزواج تبين لي ولزوجي أنني غير قادرة على الإنجاب، فبدأت معاملة أم زوجي لي تتغير بعد أن كانت بمثابة الأم الحنون بالنسبة لي، وبدأت تحث ابنها على الزواج من أخرى من أجل الإنجاب، ورفض زوجي في البداية لأنني حب العمر بالنسبة له، لكن استمرار الإلحاح عليه دفع به في النهاية إلى الضعف.. فجاء يضع الأمر بين يدي ويسألني عن رأيى.. وبكيت وأنا أبلغه عن موافقتي على زواجه لكنه كان يعرف جيدا أنني لم أفعل ذلك إلا إرضاء له، فعدل عن فكرة الزواج وصارح أمه بالرفض، وتصورت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، لكن والدته لم تيأس من الإلحاح عليه بفكرة الزواج وفوجئت به يقبل بها بعد شهور ويعرض عليّ الأمر مرة أخرى.. ولم أستطع هذه المرة المقاومة، وكتمت حسرتي في قلبي واعتصمت بالصمت.. فتزوج زوجي من فتاة اختارتها له أمه مع احتفاظه بي، ولن أصف لك ما شعرت به خلال هذه الفترة، وإنما أقول لك إنني قد رضيت بما كرهته لنفسي لكن زوجته الأخرى هي التي لم ترض بواقعها مع أنها قد قبلت بالزواج منه وهو متزوج، فراحت بعد أن أنجبت منه طفلا تضغط عليه لكي يطلقني وشاركتها والدة زوجي في الضغط عليه بدعوى أن حياته قد استقرت مع الزوجة الجديدة بالإنجاب، وأن وجودي في حياته لن يعني له سوى المشاكل والاضطرابات.. وأدركت أنا حيرة زوجي وتمزقه بين حبه لي وضغط زوجته ووالدته عليه فقررت أن أعفيه من عهده معي.. وطلبت منه الطلاق لكي أوفر عليه الحرج، وافترقنا بالدموع.. وبلا مرارات.

وعشت حياتي أحاول تضميد جراحي.. وتابعت عن بعد أخبار الرجل الذي أحببته وأنا صبية في الرابعة عشرة من عمري، وعرفت أنه قد أنجب طفلا ثانيا، ثم تقدم لي رجل متزوج ولديه أبناء يرغب في الزواج مني بحجة أن زوجته مريضة ولم تعد قادرة على تلبية احتياجاته، ولم أجد في نفسي أية رغبة في تكرار مأساتي الشخصية مع زوجة أخرى، فاعتذرت عن عدم قبوله.. وقلت لأهلي أنني لا أشعر بأنني قد أصبحت مستعدة بعد للارتباط برجل آخر بعد الرجل الذي أحببته 8 سنوات قبل الزواج.

والحق أنني كنت صادقة في ذلك مع نفسي، فلقد كنت مازلت أحب هذا الرجل.. ولم أتخلص بعد من تأثيره على شخصيتي وأفكاري، وكرهت أن أرتبط برجل آخر ما

زال قلبي ممتلئا بغيره.

ومضت خمس سنوات، فوجئت بعدها بمصرع زوجة فتاي القديم في حادث طريق مؤلم.. وانقبض صدري لما سمعته.. ثم مضت عدة شهور وإذا بي أراه فجأة في مجال عملي وأرى نظرة الاشتياق في عينيه.. وقال لي إنه قد جاء للاطمئنان عليّ، فتجنبت النظر في عينيه لكيلا ترطب نظراته النبع الجاف في داخلي فتتدفق مياهه مرة أخرى.. وانتهت الزيارة بسلام، ووجدتني مشغولة الفكر والخاطر به.. ولم يمض وقت طويل حتى رجع مرة أخرى، ثم تكررت الزيارات إلى أن اضطررت لأن أرجوه عدم تكرار الزيارة حتى لا يثير حولي الأقاويل في مكان عملي.. فإذا به يصارحني برغبته في أن نستكمل قصة حبنا وزواجنا التي تدخلت - كما يقول - الظروف وحالت دون استكمالها!

ووجدتني أرفض عرضه على الفور دون تفكير بل ووجدني ألومه في أعماقي واتهمه بأنه قد تخلى عني وهجرني ست سنوات ودخلت حياته امرأة أخرى، فلما تدخلت الأقدار وانطوت صفحة حياتها القصيرة.. جاء يريد استرجاع سنوات الحب الضائعة بمثل هذه البساطة؟

وقلت له ذلك فقال لي إنه لن يلومني إذا رفضته لكنه يرجوني فقط أن أعيد التفكير في الأمر وألا أسمح لكرامتي الجريحة بأن تختار لي طريقا لا يريده قلبي. ووعدته بالتفكير.. واستشرت أهلي، فلم أجد منهم رفضا لعودتي له لعلمهم بحبي له منذ عشرين سنة ولأنني أيضا كنت قد أصبت بالاكتئاب بعد طلاقي منه لمدة عامين، لكني لم أستطع بالرغم من ذلك أن أتخلص بعد مما أشعر به من مرارة تجاهه وكلما استشرت صديقة لي في قصتي ظنتها قصة من قصص السينما وليست من واقع الحياة.

وأنني أسألك يا سيدي هل من العدل بعد أن تخلى عني زوجي السابق وتزوج من أخرى أن أرجع إليه الآن لأنه يحتاجني لتربية طفليه، أوليس من حقي أن أرفضه.. كما رفضني يوم استجاب للضغط عليه وطلقني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من حقك بالطبع أن ترفضيه.. وأن تشعري تجاهه بالمرارة لاستجابته لضغوط زوجته الراحلة عليه ووالدته للتخلي عنك بعد 15 عاما من الارتباط العاطفي الوثيق.. لكن السؤال الأهم يا سيدتي هو : وماذا لو لم يكن زوجك السابق قد عرض عليك استكمال قصة الحب والزواج التي حالت الظروف المؤلمة دون استكمالها..؟ ألم تكن مرارتك تجاهه ستكون أعمق غورة من مرارتك منه الآن..؟ أو لم تكوني ستشعرين باللوم الأعظم له لأنه وبعد أن أتاحت له الأقدار استكمال القصة الحقيقية في حياته.. لم يفكر في تعويضك عما تسبب لك فيه من آلام وأحزان.. ولم يقبل هذه الفرصة القدرية التي لا تتكرر في الحياة كثيرة لتصحيح الأخطاء السابقة؟

أغلب ظني أن لومك له لو لم يفعل ذلك كان مقدرة له أن يكون أشد وأعمق، وفي تقديري أنك لا ترفضينه الآن رفضاً حقيقياً ونهائياً.. وإنما تشعرين فقط بأنك لم تستأديه بعد ضريبة التكفير الكافية عن تخليه عنك وانصرافه إلى زوجته الراحلة وطفليه دونك، ولا شك في أنها رغبة مؤقته في الانتقام العاطفي ستأخذ دورتها الزمنية ثم تخلي مكانها لمشاعر الحب المتأصلة منذ الصغر وللرغبات الحقيقية التي تتوارى الآن وراء اعتبارات الكرامة الجريحة، ولهذا فإنني لن أنصحك برفضه ولا بقبوله وإنما سوف أنصحك بالصدق مع نفسك وبتحري رغباتك الحقيقية ثم اتخاذ قرارك بعد ذلك على ضوء ما تنتهين إليه من استقرائها والاعتراف بها لنفسك.

وعلى أية حال، فلقد كان من المنطقي أن ترفضي عرضه عليك بالعودة لعصمته للوهلة الأولى.. مدفوعة في ذلك باعتبارات الكرامة وأيضا باعتبارات «الشك» في أن رغبته فيك ليست مبرأة تماما من الدوافع العملية، أي من حاجته الاضطرارية بعد رحيل زوجته إلى أم بديلة لطفليه الصغيرين.. وبالرغم من مشروعية هذا الدافع وإنسانيته إلا أن كرامتك الجريحة كأنثى تحتاج إلى أن يشعرك زوجك السابق بأنه لا يفكر فيك كأم بديلة، وإنما كحبيبة قديمة حالت بينه وبينها الظروف القاهرة، وعلى قدر نجاحك في إقناعك بذلك ستختصرين فترة معاندة النفس والقلب وتقبلين بما تريدينه في أعماقك منذ البداية لكنك تشعرين بحاجتك إلى مزيد من الترضية والتكفير قبل أن تمضي إليه.

والأقدار يا سيدتي قد تتولى أحيانا حل بعض المشاكل التي يستعصي على البشر حلها بقدراتهم المحدودة، ولقد شاءت الأقدار التي فرقت بينك وبين حب العمر من قبل أن تتيح لكما الفرصة من جديد الاجتماع الشمل، ولتعويضك عن حرمانك من الأمومة بهذين الطفلين اللذين ينتسبان إلى من أحببته وأنت مازلت في الرابعة عشرة من عمرك.. ففيم التردد إذن؟

ولماذا لا تعطين لنفسك الوقت الكافي لتذويب المرارات وإخلاء الإناء من رواسبة القديمة.. ثم تتفتحين بعد حين للحب وللأمومة مع زوجك السابق وطفليك الصغيرين هذين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نداء في الليل!

أكتب رسالتي هذه من أجل جارة لي أرجو أن تجد لديك ما يخفف عنها بعض ما أمتحنت به من اختبارات الحياة، فلقد نشأت هذه السيدة في أسرة بسيطة ولأب مثقل بالأعباء وتزوجت كما يتزوج البسطاء من إنسان طيب لكنه محدود الدخل ومع ذلك فلقد سعدت بحياتها البسيطة المتقشفة معه.. وشعرت بأن الحياة قد كافأتها به ونعمت بالاستقرار معه، فإذا بهذا الاستقرار لا يطول لأكثر من عامين فقط ثم يرحل زوجها عن الحياة إثر حادث أليم للسيارة النقل التي كان يقودها، وواجهت السيدة الشابة أقدارها كأرملة حائرة فوق ذراعها طفل لم يتجاوز عمره عاما واحدا، وفي أحشائها جنين لم يقدر لأبيه أن يشهد مولده واضطرت لمواجهة الحياة وحدها بعد أن أصبحت مسؤولة عن حياتها وحياة طفلها ثم طفلتها التي جاءت للحياة بعد رحيل الأب وليس لها أي من معين سوى تعاطف أهل المنطقة التي تقيم بها معهم، فعملت كدادة بإحدى المدارس بعقد مؤقت وبمرتب ضئيل وراحت تعمل ليل نهار بلا كلل، ولا ملل لكي تعول طفليها ورفضت الزواج بإصرار شديد بالرغم من شبابها وصغر سنها، وفضلت أن تكرس حياتها لطفليها قائلة لمن يعرضون عليها الارتباط أنها قد جربت حظها في الزواج مرة واحدة.. وسعدت بها ولكن مسؤوليتها عن طفليها تدفعها لأن تتفرغ نهائيا لهما.

ومضت بها رحلة العمر بحلوها ومرها، والطفلان يدرجان في مدارج العمر أمامها ويزدادان التصاقا بها وحبا لها يوما بعد يوم فناء فيهما، حتى أنهى الابن دراسته المتوسطة وحصل على الدبلوم وخرج إلى الميدان ليعمل ويساعد أمه وأخته الطالبة الجامعية بدخله الجديد على مواجهة أعباء الحياة، وبدأت حياة هذه الأسرة المكافحة تعرف بعض اللين، وبدأت الأم تشعر بالرضا عن كفاحها الذي أثمر هذا الشاب المتعلم الطيب وهذه الفتاة الجامعية الذكية، فإذا بالسماء تتجهم من جديد لهذه الأم.. وإذا بابنها الشاب الذي لم يتجاوز عمره الثانية والعشرين يلقى مصرعه في حادث سيارة.. كما لقي أبوه مصيره قبل واحد وعشرين عاما.. وإذا بالأم ترفض تصديق ما حدث وتمتنع عن الطعام والشراب تماما وتستسلم لنوبات من الفزع الليلي لتنهض خلالها من نومها أو من غيبوبتها على الأصح.. وهي تهذي بالنداء على الابن الفقيد.. وترفض الذهاب إلى عملها، ومغادرة الغرفة التي تقيم بها أما ابنتها فلقد أصيبت بانهيار عصبي وآلام حادة في المعدة، فسرها الطبيب بأنها آلام نفسية أكثر منها عضوية.

إن كل ما أطلبه منك هو أن تفكر في طريقة، لإخراج هذه الأسرة الحزينة من محنتها، فلقد عجز الجميع من حولها من الجيران والأقارب عن أن يفعلوا شيئا يخرجها من حالتها، ولهذا فلقد تركنا لك هذه المهمة الصعبة وأرجو أن يوفقك الله فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من أشد أحزان الحياة مرارة على النفس أن يفجع المرء في ثمرة القلب وهو يتهيأ بعد رحلة العناء الطويل لاستقبال نسائم الراحة.. والابتهاج بالحياة بعد طول الانتظار، غير أن الإنسان لا يملك في النهاية إزاء آلام الحياة واختباراتها إلا أن يستعين بإيمانه بربه على ثبات القلب أمام الأعاصير القاسية.. مسترجعة ما أنبأنا به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أن أمر المؤمن كله خير أن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وأن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد - كما أنبأنا الحديث الشريف - إلا للمؤمنين، لأنهم يعلمون أن كل شيء في الوجود مصدره رب الوجود سبحانه وتعالى، فإن أصابهم خير علموا أنه من عند الله وشكروا من منح وأعطى وأن أصابهم شر علموا أن الله سبحانه وتعالى حكمة فيه تجل عن إفهامهم ولهم أن صبروا عليه الأجر العظيم وبشرى السماء للصابرين.

ولقد جاء في الحديث الشريف أيضا أن الله سبحانه وتعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الابريز لا يربد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا.

فلندع الله معا يا سيدتي أن تكون هذه الأم المكلومة ممن يخرجون من البلاء كالذهب الأبريز لا يربد ولا يصدأ.

ولقد تعينها الرحلة إلى الأراضي الحجازية، وأداء شعائر الحج أو العمرة حسبما تسمح الظروف، على تمالك نفسها واستعادة ثبات قلبها وقدرتها على استكمال رسالتها مع ابنتها ولسوف أرسل إليها بمن يتحدث إليها ويدرس ظروفها ويحاول إخراجها من عزلتها.. وإعانتها على أمرها.. وشكرا لك على اهتمامك بأمرها والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نار الكراهية

أنا أب لمهندس شاب تزوج من زميلة له، وعاش معها في سلام وأنجب منها طفلا وطفلة، ثم تعرض ابني خلال عمله لإصابة في شبكية العين وأجريت له عملية جراحية وأمره الطبيب بأن يستسلم للرقاد على ظهره في الظلام لفترة طويلة. واختار ابني أن يقضي هذه الفترة في بيت والديه ليضمن الهدوء والالتزام التام بتعليمات الطبيب، فما أن علمت زوجته بذلك حتى امتنعت عن زيارته في بيتنا مع قرب المسافة بين مسكن الزوجية وبيتنا، وتمادت الزوجة لأسباب غريبة بعد ذلك في موقفها، وطلبت الطلاق، وحصلت عليه وتنازلت عن الطفلين، وكان عمر الأكبر حين وقع الانفصال ثلاث سنوات والطفلة عامين واستردت أمهما منقولاتها وتنازلت عن الشقة، وبعد محاولات فاشلة للصلح بين الطرفين تزوج ابني من أخرى وتزوجت هي كذلك من آخر، وبعد زواجها بفترة اتجهت إلى القضاء لطلب إلغاء تنازلها عن الطفلين، وقضت لها المحكمة بما أرادت، ولا بأس بذلك، مع أننا لم نتأخر أبدا عن تلبية طلبها لرؤية الطفلين أو استضافتهما عندها في المناسبات والأعياد كلما رغبت في ذلك وتوقعنا أن تعاملنا مطلقة ابني بالمثل بعد أن أصبح الطفلان في حوزتها، فإذا بها تمنعهما من رؤية أهل أبيهما وتتشفى فينا بهذا المنع، ويساندها والدها في ذلك ويطلب من الوسيط إبلاغنا بأن علينا أن نقيم دعوى قضائية لرؤية الطفلين، ولم نقم هذه الدعوة بالطبع، وما زلنا محرومين من رؤية الحفيدين، وما زال الطفلان محرومين من أهل أبيهما.. والأكثر من ذلك أن والدتهما تبث فيهما روح الكراهية والعداء تجاهنا، فلقد ذهبت إلى مدرسة الطفلة لأراها، فما أن رأتني حتى اكفهرت وانزعجت وأشاحت بوجهها عني.. وهي الطفلة نفسها التي كانت تغمرني بقبلاتها من قبل ولا يحلو لها النوم إلا على صدري.

فهل هذا هو ما تريده هذه الأم الشابة لابنيها وهو أن يتشربا الكراهية لأهل أبيهما في هذه السن الصغيرة؟. وهل تضمن ألا تمتد إليها هي نفسها نار الكراهية من جانب هذين الصغيرين حين يكبران، وبعد أن يكونا قد تعلما على يديها كيف يكرهان أقرب الناس إليهما؟

وأين هي من كلمات ربها التي تتوعد قاطع الرحم، فتشجع صغيريها على قطع رحمهما من الآن؟!

إنني أرجوك أن تنصحها وتحذرها من غضب ربها.. وحسبنا الله ونعم الوكيل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

بغض النظر عن الأسباب التي أدت إلى انهيار العلاقة الزوجية بين ابنك وزوجته السابقة.. وأيا كانت هذه الأسباب، فإنه ليس من إحسان الأم إلى ابنيها أن تغرس فيهما روح الكراهية لذوي رحمهما ولا أن تباعد بينهما وبينهم، فالإنسان يحتاج

إلى أهل أبيه كما يحتاج إلى أهل أمه وكلما كثر ذووه وتعمقت علاقته بهم وعلاقتهم به أمن أشواك الطريق ووجد إلى جواره ممن يهتمون بأمره ويقيلونه من عثرات الحياة عند الضرورة، بل ازداد إحساسه الشخصي بعزته وجدارته، وخلت نفسه من مرارة الإحساس بانعدام النصير. وتشجيع الصغير وفي مثل هذه السن المبكرة التي يستقبل فيها مؤثرات القائم على تربيته دون قدرة على الفرز والتمحيص واستبعاد الفاسد منها، والتي يتحدد فيها أيضا الكثير من سمات تكوينه النفسي الذي سيصاحبه بقية العمر، تشجيعه على تعلم الكراهية بدلا من الحب والشك في أقرب الناس إليه بدلا من الاطمئنان إليهم، والنفور من ذوي رحمة بدلا من اقترابه منهم وتمتعه بحنانهم وحمايتهم النفسية، كل ذلك لن يقدم إلى الحياة في النهاية إلا إنسانة مضطرب المشاعر ممرور النفس أقرب للاستعداد لكراهية الآخرين من الاستعداد لقبولهم نفسية والاستجابة الإيجابية لمشاعرهم، فكأنما قد حكم عليه من غرس في روحه هذا البغض للأهل في الصغر بأن يحيا حياته بإحساس العاجز عن حب الآخرين واكتساب مودتهم.. والتواصل الطبيعي معهم.

ولا عجب في ذلك لأن النار حين يشتعل ضرامها، فإنها لا تنتشر بطريقة انتقائية فتتفادى هذه البقعة وتحرق تلك وإنما تتجه ألسنتها بقوة الدفع الذاتية في كل الاتجاهات، وليس بمستبعد على من رضع الكراهية من ثدي أمه لأبيه وجده وجدته أن تمتد كراهيته عند أول مفترق للطرق إلى من أرضعته لبان البغض وكره الآخرين من قبل، ولهذا فإنه بالمنطق النفعي وحده ليس من صالح أي أم أو أب أن يغرس في نفوس صغاره كراهية أحد الطرفين أو ذويه أما بالمنطق الديني والأخلاقي، فيكفي قاطع الرحم ما جاء في الأثر عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي من قوله : «الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا شاءت هذه الأم الشابة لنفسها وصغارها أن يقطعها ويقطعهم ربهم جل شأنه، فهي وما اختارت لنفسها، وإن شاءت غيره فالطريق واضح وقصير، ولا يحتاج إلى دليل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الموقع الأخير

أنا سيدة على مشارف الأربعين من العمر متزوجة منذ 14 عاما ولي 5 أطفال أكبرهم في الصف الخامس الابتدائي وأصغرهم يبلغ عاما ونصف العام.

وأعمل موظفة بإحدى المصالح الحكومية. ومشكلتي هذه التي أعانيها.. وأصبح أطفالي الأبرياء يتقاسمونها معي الآن دون ذنب سببها زوجي ووالد أبنائي، فهو دائم التنقل والترحال دون هدف على الرغم من أنه رجل طيب ومحب جدا لأولاده وخريج إحدى الكليات النظرية ومتفوق جدا في عمله وبشهادة رؤسائه وزملائه في الأوقات التي كان يعمل فيها، كما أنه يجيد أيضا بعض الحرف المهنية، وبالرغم من كل ذلك، فإنه فجأة وبدون مقدمات يترك عمله ونترك شقتنا وأحمل أولادي ونرحل سواء إلى خارج مصر أو إلى مدينة أخرى داخل مصر. إن محل ميلاد كل طفل من أطفالي من واقع شهادة الميلاد مختلف عن الآخر تماما، كما أنه إذا فحصت الملف الدراسي الخاص بإحدى بناتي، فستجد أنها كانت تدرس كل عام في مدرسة غير العام الذي يليه، ونحن أسرة بلا جذور تقريبا وبلا ذكريات وقد قمت بحصر المنازل التي أقمنا بها، فوجدتها أكثر من ١٧ شقة ومنزلا، فهل تتخيل يا سيدي أن أطول مدة كنا نقيم فيها في مدينة ما كانت لا تزيد على سنة، وأنه أحيانا كان ينتقل بنا إلى شقة أخرى داخل المبنى نفسه الذي نقيم فيه، لقد استنفدت فترات الإجازات السنوية المقررة وانتدبت إلى معظم محافظات الجمهورية حتى أن زملائي وزميلاتي في الإدارة الأم التي أعمل بها يشفقون عليّ ويتساءلون بين أنفسهم مما يضعني في حرج شديد، ومنذ عامين وبعد عودتنا من آخر رحلة خارج مصر أتفق معي على الاستقرار في مصر واتجهنا بالفعل إلى إحدى المدن الجديدة، وقام زوجي بافتتاح مشروع جديد يتعلق بإحدى المهن التي يجيدها واستخرج كل الأوراق المطلوبة من رخصة وبطاقة ضريبية وسجل تجاري ونجح بالفعل مشروعنا الجديد هذا والتحق أولادي بالمدارس وأحسست بأن أبواب الفرج ستتفتح أمامي، غير أنه وكالعادة أغلق زوجي مشروعه وتركنا الشقة رقم 15 أو 16 وسافرنا إلى محافظة أخرى وهي التي أقيم فيها الآن وقمت بعمل انتداب جديد لي وتحويل أوراق أولادي إلى مدارس تلك البلدة الجديدة واستأجرنا شقة جديدة وهي رقم ١٧ او ١٨ ووعدني زوجي بالاستقرار في تلك البلدة غير أنه قام أيضا بتغيير الشقة فوافقته وبكيت أمامه وتوسلت إليه وأقسمت بأنني لن أترك هذه المدينة أبدا لأنني تعبت أنا وأولادي وبدأ الضعف يزحف إلى جسدي ووعدني بالاستقرار.

وذات ليلة فوجئت بزوجي يقبل أولادي وهم نيام حوالي الساعة الثالثة صباحا ويحمل حقيبة سفر وعندما سألته عن السبب قال إنه سيرحل وسيخبرني بمكانه عندما يستقر، إنني لا أعرف سر هروب زوجي الدائم هذا رغم أنه طيب جدا وصحيفته بيضاء وليس له أي أصدقاء وليس له في هذه الدنيا سوانا، ولقد اتصل بي زوجي حتى الآن من حوالي أربعة أماكن مختلفة وأرسل لي ذات مرة مع أحد

السائقين مبلغ 60 جنيها علمت فيما بعد بأنها كانت كل ما يملك وعلمت أيضا أن نوبات الصداع الشديد تهاجمه بشدة.

وأصبحت أواجه الحياة بمفردي وظهرت مشكلة أخرى في حياتي وهي أن لى ابنا يبلغ من العمر 4 أعوام شديد التعلق بوالده وأصيب باكتئاب بعد غياب أبيه وفقد كثيرا من شهيته وعندما أتصل زوجي بي مرة وأخبرته بحال ابننا حضر في اليوم نفسه وأخذ معه طفلي المسكين ورحلا الاثنان وطلب مني السماح لأنه ليس بيده شىء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا شك في أن زوجك يعاني بالفعل اضطراب سلوكية يدفعه إلى التجوال الدائم في أرض الله الواسعة.. وقد يكون هذا الاضطراب شكلا مخففة من أشكال الفصام الحركي الذي يدفع صاحبه للتحرك المستمر ليل نهار، فيعرضه للانهاك الجسدي، ويؤدي به أحيانا إلى العجز عن أداء أي عمل على الوجه السليم، وربما يكون كذلك نوعا من مزاج الهروب النفسي الذي يدفع صاحبه للانتقال الدائم من مكان إلى مكان، يهرب من شيء مجهول أو كأن هناك أقدارا خفية تطارده ويسرع بالفرار منها، وفي كل الأحوال، فإن هذا الاضطراب السلوكي يمكن احتمال آثاره الاجتماعية إذا كان من يعانيه فردا غير مسؤول سوى عن نفسه، أما حين يكون زوجاً لزوجة وأب لخمسة أبناء، فإن الأمر يستدعي بالفعل البحث عن علاج له لدى الأخصائي النفسي، كما أن عليك أنت أيضا مسؤولية كبرى في مقاومة هذه النزعة الجبرية لديه للحركة والانتقال من مكان إلى مكان.. وذلك بالتشبث بالموقع الأخير الذى رست فيه سفينتكم الجوالة في كل البحار، ورفضمغادرته نهائيا ومهما كانت الأسباب والمبررات، وعلى زوجك ابتداء من الآن إذا أصر على مواصلة حياة البحارة الذين لا يطول بقاؤهم في كل ميناء سوى يوم أو بعض يوم، أن يسلم بأنه من الأفضل له ولأسرته أن تكون له «قاعدة» آمنة يبحر منها وحيدة حين يلح عليه فداء الرحيل، ويرجع إليها متعبأ ليجد الراحة والأمان حين يطول به التجوال.. وما أعجب ما يتكشف لنا كل حين من غرائب النفس البشرية وألغازها الغامضة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البيت الجميل!

أكتب لحضرتك وأنا أبكي من عيني وقلبي ولا أعرف ماذا «أعمل» في مشكلتي وأنا بصراحة كنت لا أقرأ المشاكل التي تكتبها لكن وجدت ماما مرة تقرأها، فكتبت لك يمكن بابا وماما «يقرأوا» مشكلتي : فأنا عندى 10 سنوات وأخي عنده ١٢ سنة ونعيش وحدنا في شقة وضعنا فيها بابا لما أخذنا من ماما، لأن بابا وماما «مطلقين» وبابا متجوز وعايش في شقة ثانية وماما عايشة مع والديها وبابا أحضر لنا مربيات كثيرات و «كلهم» «وحشين » وبابا «غيرهم» وآخر واحدة مشيت لأن بابا عرف أنها حرامية وسرقت حذاء لي وملابسنا، والتي قبلها كانت بتحضر «رجال» إلى البيت واحنا نايمين أو لما نروح المدرسة، وأنا دلوقتي مع أن عمري ١٠ سنوات بأعمل الأكل كل يوم في المساء علشان تاني يوم وكمان بأغسل الغسيل على غسالة عادية والأطباق والحلل بعد كل وجبة وأخويا قليل لما يساعدني لأني بنت ، وتنظيف البيت كله عليه، ولا أجد الوقت للمذاكرة بعد أن كنت أيام ماما متفوقة، وربنا يستر وننجح آخر السنة، وبابا قليل لما يحضر وينام معنا في البيت ولا يريد أن نختلط بأحد ومنبه علينا ألا نقول لأحد من الجيران إننا نبيت لوحدنا وكمان ألا نقول لماما لدرجة أنني لما أكبر واتجوز مش حاجيب أولاد يتعذبوا زينا وبابا محلفني أنا وأخي على المصحف أننا ما نكلمش ماما ولا يسمح لنا بأن نشوفها إلا مرة واحدة كل أسبوعين وأنا وأخي بنحب ماما جدا ونوفر من مصروفنا لكي نشتري كارت تليفون ونكلمها من الشارع واحنا راجعين من المدرسة وربنا يسامحنا وماما قعدت بعد طلاقها من بابا سنين مش راضية تتجوز لغاية من 3 سنين لما بابا أخذنا منها اتجوزت وسافرت ورجعت واتطلقت، وطلبت أن نعيش معها لكن بابا رفض علشان يعذبها، وبيقول إذا كانت عايزة تأخذنا فهو مش هيصرف علينا ولن يعطينا الشقة وإحنا ما نقدرش نعيش مع ماما في بيت والدها لأن خالي متجوز ويعيش مع والديه وأي مربية حتيجي لو وجدها بابا حتسيبنا لوحدنا وتخرج زي كل المربيات.. ما عملوا ما عملوا.. فلماذا لا نعيش مع ماما وهي نفسها تعيش معانا وتخدمنا ونحن كذلك؟

وهل ممكن يا عمو تلاقي ماما راجل يتجوزها ويرضى نعيش معاه في شقته ويربينا زى أولاده ويحبنا أكثر من بابا، إننا نزور بابا في بيته «التاني» الجميل وبيقول لنا أنه لا يقدر يأخذنا نعيش معاه في بيته الجميل وأحنا ساعات بنحس أنا وأخويا أنه ما بيحبناش وماما بتقول عيب يبقى فيه محاكم بينها وبين بابا أنا كان نفسي أكون دكتورة وأخويا كان نفسه يكون «مهندس» لما نكبر وماما كانت بتشوف دروسنا وبتغسل لنا ملابسنا وتعمل لنا الأكل وكل حاجة وكنا شاطرين وياريت نرجع زي زمان وأنا كتبت لك لأني عندي مدرسة في المدرسة بأحبها قوي القيتني مرة بأعيط في المدرسة لوحدي وصممت تعرف ليه وحكيت لها وقالت لي إنه كان عندها بنت وماتت وأنا زي بنتها وقالت أكتب لحضرتك لأنها بتقرأ لك زي ماما وممكن تساعدني وتلاقي لماما رجل متدين عنده بيت وليس عنده أولاد ويحب أننا نكون أولاده.. فهل ممكن تساعدنا في هذا.. أنا وأخويا

حنشتري الأهرام كل يوم جمعة لغاية ما ترد علينا لأننا عايزين حل روعة.. والسلام عليكم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لو كان الأمر بيدي لحسابت أباك حساب الملكين عن إصراره بغير رحمة على أن يمنع والدتكما من الحياة معكما في المسكن الذي تعيشان فيه وحيدين الآن إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.. أو تتزوج أمكما ذات يوم من رجل غرس الله في قلبه الرحمة بالصغار، فيقوم منكما مقام الأب الغائب عنكما لكن ماذا نقول في عناد بعض الآباء مع بعض الأمهات الذي لا يدفع ثمنه الفادح سوى الصغار الأبرياء؟ وماذا نقول لمن يرضى لطفلته وابنه الصبي بأن يعيشا وحيدين تماما في مسكن مستقل وفي استطاعته أن يأمن عليهما في رعاية أمهما مهما كان تاريخها السابق معه أو تاريخه معها، أليس ذلك أكرم وأرحم من أن يأتيهما بمربية تستقبل الرجال خلال نومهما أو غيبتهما، أو ليس ذلك أفضل وأرعى لهما من أن يأتيهما بأخرى تدعهما لنفسيهما أكثر الوقت مع ما في ذلك من مخاطر تربوية عديدة عليهما؟

إن الشذوذ هو اللجوء إلى شيء بديل مع وجود الشيء الأصيل و «الشيء الأصيل» هنا هو الأم الطبيعية لكما التي ليست الآن في عصمة زوج ولا شيء يمنعها من رعايتكما والإقامة معكما، فماذا يسعد أباك في أن يحرمها منكما ويحرمكما منها؟

لقد نهانا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أن نفرق بين الأم وأبنائها وقال ما معناه «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة».

ولهذا، فإني أدعو أباك لقراءة رسائلك الموجعة هذه.. وأن يتفكر في معاني كلماتها الساذجة المعبرة عن حيرة طفلة لا ذنب لها فيما ينكره أبوها على أمها ولا في موقفه منها.

أما مطلبك الآخر في أن «أجد» لأمك رجلا متديناً يتزوجها ويقبل بكما معها ويرعاكما كأبنائه الذين من صلبه.. فما أقسى أن يبحث الطفل الصغير عن البديل لأبيه الطبيعي وهو على قيد الحياة يحيا حياته في «بيت جميل» لكني أعدك بأن أبذل ما أملكه من جهد في هذا الشأن وأن أعرض على والدتك ما قد أتلقاه لها من عروض ملائمة في هذا الشأن، وأرجو منك أو من والدتك الاتصال ببريد الأهرام مساء الاثنين المقبل لإعطاء البيانات الكافية عنها لأن رسالتك خالية من هذه البيانات كما أنها خالية أيضا من العنوان الذي يمكن الاتصال بكم فيه.. وشكرا لك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

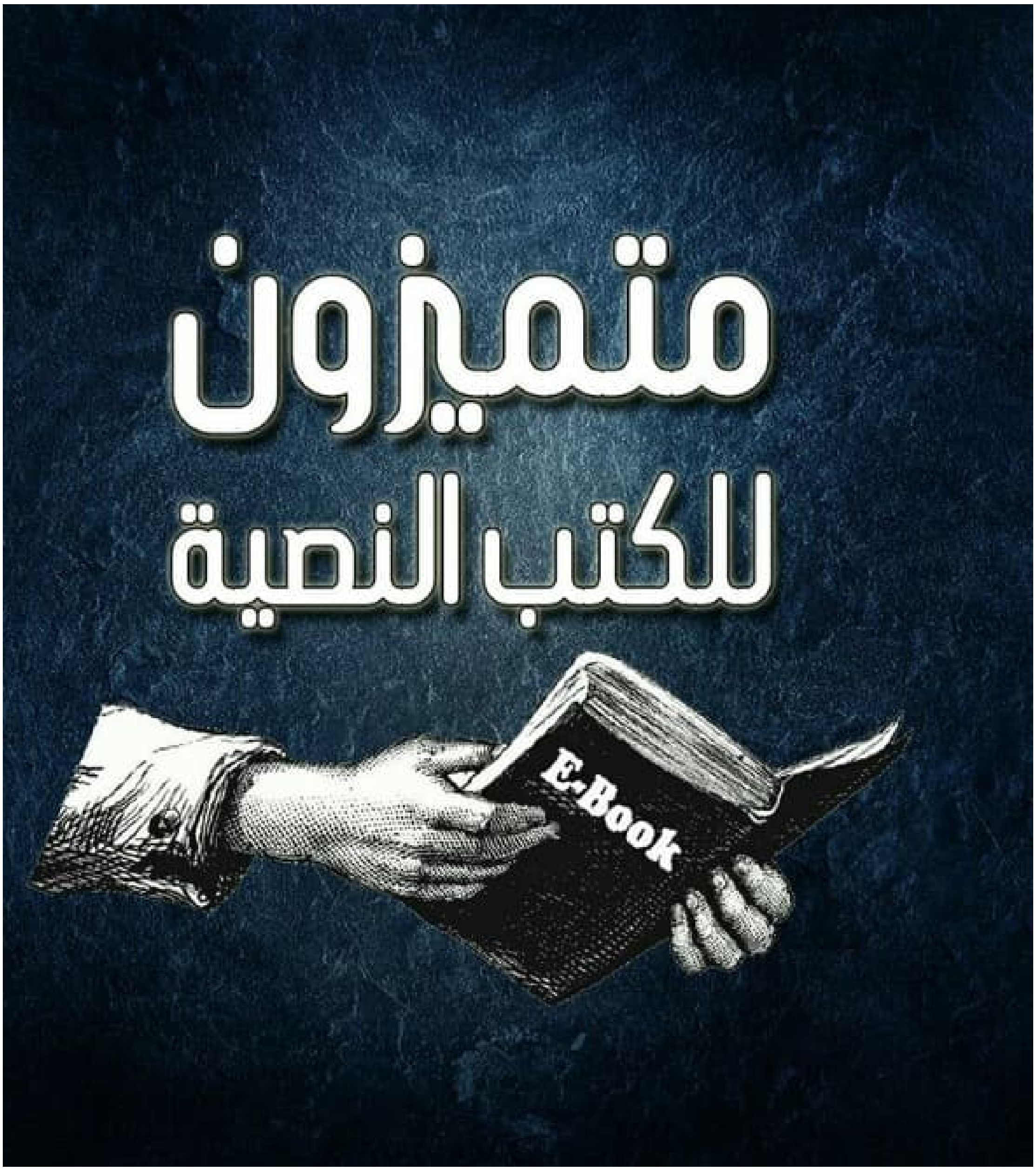
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

هذا الكتاب

تحطيم الأغلال

كشف الحساب

الطريق المظلم!

الكلام المر

دوائرالدوامة!

الماء الفاتر!

اللوحة المثالية

سلاح الصمت!

الذكرى الغالية!

الزيارة المفاجئة!

درجات الرأفة!

الحزام المشدود!

روعة الحياة!

شهوة الانتقام!

أبواب الجحيم

السؤال الأهم

نداء في الليل!

نار الكراهية

الموقع الأخير

البيت الجميل!

الفهرس: